... الاستاذ عبد الرحمن ...
... ذكرا لايام الدراسة على معاهد
العلوم التاريخية
المؤلف

A
956.9102
H126f
c.c.

فتح العرب للشام

بحث تاريخي انتقادي تحليلي

B.U.C. LIBRARY
19 AUG 1991
RECEIVED

تأليف
جورج مرعي حداد ب ع.

المطبعة الادبية
بيروت ١٩٣١

اهداء الرسالة

الى شبان المدينة التي كانت من عهد ابراهيم ولا تزال تاجاً عَلَى رأس سورية رغم تقلبات الازمان وتغيرات العروش . الى شبان المدينة التي ما كاد اصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يطأونها باقدامهم حتى سموها جنة الاسلام . الى شبان المدينة التي اختارها الامويون من بين البلدان الاخرى فجعلوها قاعدة ملكهم حتى اعتزوا بها واعتزت بهم . الى شبان دمشق الفيحاء التي تعتز بغوطتها وتفاخر بعروبتها سائر بلدان العالم اهدي رسالتي هذه ، فما هي الا تخليداً لذكرى تسيطر العنصر العربي عَلَى مدينتكم الخالدة يا شباب دمشق — ذلك العنصر الذي تسلسلتم منه والذي به تفاخرون ، ذلك العنصر الذي اورثكم قلباً لا يزال يخفق بحرية اهل الصحراء ووفاء اهل الصحراء وكرم اهل الصحراء وعزة نفس اهل الصحراء ؛ صحراء بلاد العرب التي اوفدت اجدادكم الى بلادكم التي تسكنونها والتي ورثتموها عنهم

جورج مرعي حداد

مقدمة

وبعد فهذه رسالة تاريخية يبحث بها المؤلف بالطريقة التحليلية الانتقادية عن سقوط دمشق في ايدي العرب المسلمين وما سبق ذلك من الحوادث الهامة في العالم الاسلامي . وكانت قد اعلنت دائرة التاريخ في كلية الآداب والعلوم في جامعة بيروت الاميركية تحت ادارة العلامة الدكتور اسد رستم ان الاستاذ الدكتور هربت بيتشر منزو يمنح جائزة للفائز بين طلبة دوائر الجامعة العليا في كتابة احسن مقال تاريخي يتعلق بتاريخ هذه البلاد ، فربحت هذه المقالة الجائزة .

ولما كنا نعتقد ان هذه المقالة تحمل الى ابناء اللغة العربية آراء جديدة هي نتيجة ابحاث نصف قرن قام بها علماء التاريخ في الغرب وانها تساعد على انماء الروح العلمية في الابحاث التاريخية وتعميم طرق الجرح والتعديل والانتقاد في جميع ابحاثنا — تلك الطرق التي نرى طلائعها في بعض المطبوعات العصرية بعد ان كادت تفقد — رأينا ان نترجمها من اللغة الانكليزية التي كتبت بها وان ننقحها ونزيد عليها وننشرها كي يطلع عليها ابناء الناطقين بالضاد فيكون المجال مفتوحاً للمناقشة والبحث . وقد تفضل صاحب مجلة العصور في مصر بنشر المقالتين الاولى والثانية من هذه الرسالة في الاعداد الثلاثة الاخيرة التي صدرت قبل احتجاب المجلة .

وقد توخينا الحقيقة المجردة في جميع هذه المباحث واستندنا الى ثقات

مؤرخي العرب وا كابر المستشرقين في كتابتنا واشرنا الى ذلك في الهامش · على اننا لم نكن لنقبل كتاباتهم على علاتها الا اذا وجدنا حججاً وبراهين كاملة تؤيد صحتها · وكنا اذا اختلف المؤرخون في نقطة نبين آراهم وننقدها ونرجح الواحد على الآخر بعد اعطاء اسباب الترجيح وهذا ليس بالأمر السهل وخصوصاً في موضوع مثل هذا تتناقض فيه اقوال الكتّاب كل التناقض ·

ولنا وطيد الامل ان تفي هذه المقالات بغرضها المطلوب فتساعد على حل معضلة الفتوحات الاسلامية الشديدة التعقد ان كان في اسبابها او ترتيب حوادثها او طرق تنفيذها، وان توجد لذة في اساليب التاريخ العلمية الحديثة فتهدم كل ما اتى به الادباء تحت اسم « تاريخ » وتعرف القراء بتواريخهم القديمة وطرق كتابتها وبالذين يبحثون في تاريخ بلادهم من ابناء الغرب وكيفية تفكيرهم واستنتاجاتهم ·

واننا نسدي خالص شكرنا للاستاذ منرو في جامعة برنستن الذي مكننا من كتابة هذه الرسالة والى مكتبة الجامعة الاميركية والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين من اجل السماح لنا بمراجعة الكتب التاريخية المتعلقة بموضوع هذه الرسالة

بيروت في ١٦ تموز سنة ١٩٣١

جورج مرعي حداد

مقدمة المصادر

١ — معلومات عامة تتعلق بمؤرخي العرب والهستوريغرافيا[١] العربية

ما كان العرب ليدوّنوا تاريخهم ويظهروه لاول مرة الا في ايام الامويين · اما الكتب المتعلقة بالتاريخ العام فانها لم تكتب الا في عهد الخلفاء العباسيين · وقد كانت اهم مصادر تاريخ العرب آنئذٍ حكايات زمن الجاهلية، واساطير وروايات تتعلق بحياة الرسول وحروبه، ولوائح نسبية تصف تسلسل الكثيرين من النبي والصحابة · واول الاشكال التي اتخذها تاريخ العرب انما كانت سير الرجال، والانساب، ووصف المغازي والحروب[٢] ·

واول كتاب تاريخي من النوع الاول هو « سيرة رسول الله » كتبه محمد ابن اسحق (توفي ١٥١ = ٧٦٧) للخليفة المنصور العباسي · ولم يصل الينا هذا الكتاب بكامله، على ان « سيرة ابن هشام »[٣] (توفي ٢١٣ = ٨٣٤) تحوي نتفاً كثيرة منه · ومن اهم كتب النوع الثاني « كتاب الطبقات الكبير » لابن سعد (توفي ٢٩٠ = ٩١٤) الذي كان كاتباً عند الواقدي ·

---

(١) الهستوريغرافيا هي فن كتابة التاريخ، وبالانكليزية Historio graphy

(٢) مقدمة حتي لترجمة فتوح البلدان في الانكليزية ص ٤٤١

(٣) توفي ابن اسحق في بغداد، وتوفي ابن هشام في القاهرة وكان اخصائياً في علم الانساب والنحو : راجع ابن خلكان ج ١ ص ٤١١، ٦٨٩، وتاريخ العرب لنكلسن ص ٤٤١

ومن اقدم كتب النوع الثالث كتاب « المغازي » للواقدي (توفي ٢٠٧ = ٨٢٢) [٤] .

وقد تعوّد مؤرخو العرب ان يدونوا تواريخهم بشكل حديث في معظم الاحيان فيروي الكاتب الاخبار التي يريد ذكرها معتمداً عَلَى سلسلة من الرواة بحيث لا تنتهي السلسلة الا ويكون قد ذكر الرجلَ الذي رأى الحادث بعينه ونقله الى غيره . وتتوقف صحة الحديث لا على تكامل عدد الرواة فقط بل على مكانة كل راوية من التدقيق والسمعة الحسنة [٥] . ان طريقة الكتابة هذه فريدة في دقتها ولكنها لا تخلو من المساوئ ، فان المؤرخ يروي الحديث عادة كما هو بدون تحليل او مقابلة او انتقاد فهو يجهل ما نسميه بالجرح والتعديل وكتبه خالية منها

وقد تعوّد آخرون من المؤرخين ان يجمعوا الروايات والاحاديث المختلفة الى جسم واحد فيروون منها اخباراً ذاكرين مراجع اخبارهم بعد كل قطعة او صحيفة ، فتراهم يكتبون من اختباراتهم ومذكراتهم الشخصية ويلجأون الى الاسناد عندما تخونهم ذاكرتهم هكذا « اخبرني فلان راوياً عن فلان عن فلان انه حصل كذا وكذا » . وقد كان العرب يبنون كتاباتهم على التواريخ فتطور ذلك الى السنويات وظهر المدوّن [٦] . واول مدون نعرفه هو الطبري تبعه في طريقته ابن الاثير وابو الفدا [٧]

(٤) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٧٢٢ ، نكلسن ص ١٤٤

(٥) راجع بشأن الحديث مقالة جونبل Juynboll في ج ١ من دائرة المعارف الاسلامية

(٦) السنويات اي Annals ، والمدوّن اي Chronicler

(٧) حتي — ص ٥٦٣

٢ — معلومات خاصة تتعلق باهم مصادر هذه الرسالة

انه لا يسعني الا الاقرار بانني لم اتمكن من قراءة كل المراجع التي تتعلق بموضوعنا هذا . فقد كان لي نصيب ان ادرس عدداً وافياً من كتابات رجال الفئة الغالبة — العرب — ، اما كتابات رجال الفئة المغلوبة فانني لم اوفق الى درسها خصوصاً وقد كتبت باللغة اليونانية . وبعض كتّاب الفئة الثانية ثيوفانس ويوتيشيوس ونيكفورس . هؤلاء سمعت عنهم وعرفت بعض ارائهم من خلال كتابات علماء التاريخ في الغرب التي كان لي الحظ بقراءة عدد ليس بالقليل منها [٨]

يقول العلامة الالماني بكّر ان كتابات العرب عن الفتوحات الاسلامية مفعمة بالاكاذيب والاغلاط وخصوصاً في مسأله التواريخ وترتيب زمن الحوادث [٩] . ويروي المؤرخ جبن ان النبوغ في فن التاريخ مفقود عند الشعوب الاسيوية لانهم يجهلون قوانين النقد والفلسفة [١٠] . عَلَى اننا وان كنا لا نوافقهم كل الموافقة في اقوالهم هذه ، فاننا نشعر انها لا تخلو من الصحة . فقد يشعر مؤرخنا العربي انه انهى واجبه عندما يروي الاخبار كما رواها غيره وقلما يُبدي رأيه وملاحظاته ، وزد عَلَى ذالك بان ليس لمؤرخي

(٨) Theophanes, Eutychius, Nicephorus قرأت عن هؤلاء خصوصاً في «مذكرة» دي غويي ، راجع لائحة المصادر بشأن الكتب الافرنجية

(٩) مقالة بكر Becker عن « توسع المسلمين » في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى ج ٢ ، ض ٣٣٩

(١٠) راجع جبن Gibbon «انحطاط الامبراطورية الرومانيه وسقوطها» ج ٥ ص ٢٩٨

العرب تلك المقدرة عَلَى تخصيص لكل فصل من الموضوع قسطه من المواد بالنسبة الى غيره و كثيرون منهم لا يراعون الاداب الحسنة في لغتهم وكتاباتهم(١١) ٠ وقدلاحظت في كتابة هذا المؤلف انهم لا يعطون شيئاً من اسباب الحوادث ونتائجها ولا يُظهرون تفلسفاً فيها كأن همهم هو رواية الحوادث فقط ، وقد تبعهم في طريقتهم هذه من نقل عنهم من مؤرخي هذه الايام فأخذوا ما اخذوه وارتكبوا نفس الخطأ الذي نلوم القدماء من اجله ٠ وعلى كلٍ فانه لا يجب ان نلومهم ونطلب منهم اكثر مما في وسعهم لان تدريبهم لم يكن تدريب من يود ان يجعل التاريخ والفلسفة اختصاصه ولم يقصدوا بدرسهم ان يكونوا مؤرخين كما نفهم هذه الكلمة اليوم فبعضهم كانوا قضاة اخصائيين في الاحاديث النبوية والفقه وآخرون كانوا من اهل الادب — وهذه الحالة لا تزال تسود في شرقنا العربي حتى الوقت الحاضر وتظهر في بلاد الغرب بصورة اصغر

ويُقسم الرواة والمؤرخون من العرب على اساس جغرافي الى ثلاثة مدارس او فصائل وهي (١) الفصيلة العراقية (٢) فصيلة المدينة والشام (٣) الفصيلة المصرية ٠ اما الاولى فيمثلها لنا سيف بن عمرو و كتاباته اقرب الى الاقاصيص الروائية منها الى التاريخ الحقيقي وهي اقل الثلاث حجة ودقة ٠ والفصيلة الثانية هي احسن من الاولى ورجالها ، وهم ابن اسحق والواقدي وغيرهم ، لهم مكانة اسمى بين مؤرخي العرب ٠ والثالثة تشابه الثانية وقد انتاب كتابات اصحابها ما انتاب اصحاب الفئة الثانية من مراجعة العباسيين لها لان

(١١) حتي — ص ٧

جل قصدهم كان الحط من كرامة الامويين(١٢)

وإليك بعض معلومات عن أهم مؤرخي العرب الذين هم مصادر معرفتنا عن هذه الاونة :

١ً محمد بن عمر الواقدي ١٣٠ — ٢٠٧ = ٧٤٧ — ٨٢٢ كان إماماً وقاضياً في بغداد وكتب ٢٨ كتابا واخذ عنه كثيرون(١٣) ومؤلفه الذي يهمنا في هذا المقام هو « فتوح الشام » ، كتاب يجمع بين التخيلات الروائية والتاريخ وذو لهجة خطابية قوية ٠ ويقول الاستاذ مرجليوث فيه انه «احدى الاقاصيص التي اوحتها مغازي العرب وفتوحاتهم»(١٤) وهذا ما يظهر جلياً لمن يقرأ الكتاب ٠ عَلَى ان للواقدي عموماً درجة سامية بين مؤلفينا ويحترمه مؤرخو العرب والافرنج وهو وان كان ساكناً بغداد فانه من فصيلة اهل المدينة والشام من حيث الطرق التاريخية

٢ً الامام احمد بن جابر بن يحيى البلاذري (٢٧٩—٨٩٢) وهو من اهم الثقات في موضوعنا هذا ومع كونه فارسياً في الاصل وساكناً بغداد فان الطريقة المدينية كانت اساساً لكتاباته ٠ اما كتابه « فتوح البلدان » فانه مختصر مؤلف اكبر لم يصل الينا(١٥) ، وهو محشو بالحقائق وفيه ابهام في بعض

(١٢) انظر مقال بكر في تاريخ العصور الوسطى طبعة كمبردج ص ٣٣٧ وحتي ص ٤ ولا يذكر هذا الاخير الفصيلة المصرية

(١٣) ابن خلكان ص ٧٢٢ ، يقول الدكتور حتي ص ٩ ان البلاذري يشير اليه ثمانين مرة في كتابه

(١٤) انظر كتاب مرجليوث Margoliouth « القاهرة واورشليم ودمشق » ص ٤٠٧

(١٥) حتي ص ٦

النقط على انه خلو من التخيلات والمبالغة وان لم يكن للدرجة التي يريدنا الدكتور « حتي » ان نتصورها لان المبالغة هي غلطة عمومية تنطبق على كل مؤرخي العرب تقريباً · ويتوخى البلاذري اسناد الاخبار حتى يصل الى المرجع الاصلي ويشعر القارىء اخلاصه في رواية الحقائق كما حدثت وهو لا ينقد ولا يعلق او يشرح الا في حالات قليلة · والمؤلف جدير بوجه الاجمال بان يعتمد عليه (١٦) ·

٣ً ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وُلد في طبرستان (سنة ٢٢٤ — ٨٣٤) وتوفي في بغداد (٣١٠ — ٩٢٥) وله نصيب وافر من السمعة الحسنة والاهمية ويقول فيه جبن انه اشهر مؤرخي العرب (١٧) · وبعد ان تلقى دروسه في بلدته سافر في العراق وسورية ومصر وهو يدرس القرآن والفقه والحديث الشريف والتاريخ ، ثم استقر اخيراً في بغداد وكتب هناك تفسير القرآن على ان «تاريخه» هو ما يهمنا في هذا المقام ويقول ابن خلكان فيه انه اصح التواريخ (١٨) · اما لغته فانها دقيقة ومناسبة للمواد (١٩) · وتاريخه مجموعة من الاخبار والروايات والاحاديث كلها مرتبة حسب السنين · والاشخاص الذين يعتمد عليهم في روايته اكثر الاحيان هم ابن اسحق والواقدي وابو زيد عمر بن شبه وسيف بن عمرو المار ذكره (٢٠)

---

(١٦) مثله ص٧ ، فتوح مصر لبطلر Butler ص ١١ من المقدمة

(١٧) جبن ج ٥ ص ٢٣١

(١٨) ابن خلكان ج ١ ، ص٦٥١ (١٩) بطلر ص ١٣ من المقدمة

(٢٠) كان ابن اسحق اخصائياً في السير والحديث : ابن خلكان ج ١، ص٦٧٩ يقول دي غويي في مذكرته ص ١ : ان طريقة سيف خطأ وطريقة ابن اسحق اصح ·

والمؤلفات والمصادر الاخرى العربية مبنية في معظم الاحيان على المراجع الاصلية التي ذكرناها الان وسنوردها في الهامش كلما ورد ذكرها

وانه لمن المهم ان نذكر ان المراجع التي اوردناها وكثيراً غيرها متضادة ومتنافرة في ارائها وخصوصاً فيما يختص بتاريخ وقوع الحوادث · وهذا ما حث علماء الغرب على الاستطلاع وجعل تواريخ العرب محط انظارهم وموضوع ابحاثهم العلمية الدقيقة لمدة عقود عديدة · وكثيرون من هؤلاء العلماء لم يكن لهم رائد الا حب الحقيقة وكانوا مؤرخين من الطبقة الاولى ومنهم من كانوا ادباء وغيرهم لاهوتيين اجتذبهم ولعهم بالدين الى تاريخ الاسلام · على انه لا يسعنا الا ان نقول انهم ساعدوا كثيراً في استخلاص ما يمكن الاعتماد عليه من تلك الروايات المختلفة وفي تعيين تواريخ الحوادث بالضبط ولكن لا يجب ان يفوتنا ان هؤلاء الباحثين لم يتفقوا في نتائجهم فالتفاوت لا يزال موجوداً وذلك راجع الى الاعتماد في ابحاثهم على مخطوطات ومؤلفات عربية مختلفة

ونعرف مؤلفات اجنبية عديدة تتعلق بموضوعنا هذا · فقد جمع البرنس كيتاني معظم التواريخ العربية المهمة ان لم يكن كلها ورتبها وعلق عليها الحواشي الثمينة والملاحظات النفيسة فأخرج مؤلفاً في عدة مجلدات سماه « اخبار الاسلام » له مكانته العلية في عالم المستعربين ، وقد الفه في لغته الايطالية ونعرف عنه شيئاً بواسطة مؤلفات الاخرين الذين نقلوا عنه (٢١) ·

---

(٢١) Annali dell'Islam للبرنس Caetani نقراً عنه خصوصاً في مقال بكو في تاريخ العصور الوسطى — كمبردج ج٢ ص ٣٣٧—٣٤٦

اما الباحثون ڤايل و كريمر الالمانيان وميور الانكليزي[٢٢] فانهم كتبوا في موضوع الفتوحات الاسلامية على ان كثيراً مما كتبوه ليس منتقداً كما يجب فموءلف ميور مثلا في هذا السبيل يقارب سيف بن عمرو وابن الاثير[٢٣] جداً وسنأتي على ذكر الاخرين في فصولنا التالية · وقد احدثت تنقيبات المستشرقين الالمان مولر وفلهاوزن ودي غوبي انقلابات عظيمة في درس هذه الاونة واصبحت كتابات كريمر و كوسن وڤايل قديمة وغير مهمة بالنسبة اليهم[٢٤] ·

ولنكتفي الان بذكر بعض معلومات تتعلق بالمستشرق الهولاندي دي غوبي (١٨٣٦ - ١٩٠٩)[٢٥] · خصص هذا العلامة نفسه لدرس اللغات الشرقية واصبح مقتدراً في اللغة العربية والفضل راجع الى استاذه جوينبل ثم اخذ رتبة الدكتوراه عام ١٨٦٠ من جامعة ليدن واصبح اخيراً استاذ العربية في نفس الجامعة · وقد كان صاحب النفوذ والمقدرة في عدة موءتمرات دولية للمستشرقين وكان عضواً في اكبر اكاديميات العلوم الشرقية ومنحته اكبر الجامعات عدة القاب ورتب شرفية · وقد الف عدة كتب ونشر تاريخ الطبري وعلق عليه · اما موءلفه « مذكرة عن فتح العرب لسورية » فهو

---

(٢٢) Weil, Von Kremer, Muir

(٢٣) توفي ابن الاثير ١٢٣٢/٦٣٠ في الموصل ويظهر انه بنى موءلفه على كتاب الطبري : انظر ابن خلكان ج ١ ، ٤٩٢ ، وبطلر ص ١٥ من المقدمة

(٢٤) مذكرة دي غوبي De Goeje ص ٣ ، والاسماء هي Wellhausen, Muller، Caussin

(٢٥) بشأن تاريخ حياته راجع دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ الطبعة الحادية عشرة ·

كتاب علمي نفيس يحوي مباحث وحججاً راهنة مبنية على البراهين القاطعة وله نتائج مفيدة

وقد اثبتت اكتشافات المستشرقين « نولدكه » الالماني « ورايت » الانكليزي[٢٦] في مخطوط كتبه معاصر عن حوادث سني ٦٣٥ و٦٣٦ في المتحف البريطاني النتائج التي وصل اليها دي غوبي وصححت اغلاط عديدة

---

(٢٦) Noldeke , Wright كان اكتشافها هذا عام ١٨٧٤ وقد نشرت النتائج التي توصلوا اليها في مجلة المستشرقين الالمانية عام ١٨٧٥ ، ج ٢٩ ص ٧٦ ، وتسمى المجلة في الالمانية Zeitschrift der Deutschen Morgen landischen Gesellschaft

مصادر الرسالة

الكتب العربية

١ تاريخ الرسل والملوك : السلسلة الاولى والمجلد الرابع
لابي جعفر محمد بن جرير الطبري · طبعة ليدن ١٨٩٠

٢ فتوح البلدان
للامام احمد البلاذري · طبعة ليدن ١٨٦٦

٣ فتوح الشام · الجزء الاول
لمحمد ابن عمر الواقدي · طبعة القاهرة ١٨٦١

٤ التاريخ الكبير
للحافظ ابن عساكر · دمشق ١٩١١—١٩١٤

٥ تاريخ ابن واضح اليعقوبي الجزء الثاني · ليدن ١٨٨٣

٦ كتاب العبر · الجزء الثاني
لابن خلدون · طبعة بولاق ١٨٦٧

٧ الفتوحات الاسلامية · الجزء الاول
لاحمد بن زيني دحلان · طبع مكة ١٨٨٤

٨ التاريخ الكامل · الجزء الثاني
لابن الاثير · القاهرة ١٨٨٥

٩ وفيات الاعيان
لابن خلّكان · القاهرة ١٨٨٥

١٠ معجم البلدان لياقوت · القاهرة ١٩٠٦

١١ العقد الفريد · الجزء الثاني
لابن عبد ربه · القاهرة ١٨٨٧

١٢ تاريخ عمر ابن الخطاب
لابن الجَوزي · القاهرة ١٩٢٤

١٣ سيرة ابن هشام · القاهرة ١٨٧٨

١٤ كتاب الفخري
لابن طباطبا · القاهرة ١٨٩٩

١٥ تاريخ ابي الفدا · الجزء الاول · القاهرة ١٩٠٧

الكتب والمقالات الانكليزية

1 Origins of the Islamic State
by Philip Hitti New york 1916

2 Expansion of the Saracens
being ch. X of Cambridge Medięval History v. II
by Carl Becker Cambridge 1913

3 Annals of the early Caliphate
by Sir William Muir London 1883

4 « Damascus » (article in Encyclopœdia of Islam) v. I
by R. Hartmann Leyden 1913

5 Cairo, Jerusalem and Damascus
by D. S. Margoliouth New york 1907

6 Decline and fall of the Roman empire v. 5
by Edward Gibbon New york 1879

7 The Orient under the Caliphs
(a translaton of Von Kremer's "Cultur - Geschichte des Orients unter den Chalifen")
by S. K. Bukhsh Calcutta 1920

8 The Great Sieges of History
by Robson London 1855

9 The Arab Conquest of Egypt
by Alfred j. Butler Oxford 1902

10 Literary History of the Arabs
by R. A Nicholson London 1923

11 Short History of the Saracens
by Ameer Ali Syed London 1297

12 "The Caliphate": article in Encyclopœdia Brittannica V.5
by M. J. De Goeje Cambridge 1911 edition XI

13 "Damascus" in Ency. Brit V. VII
by Macoolister Cambridge 1911 edition XI

14 "Monophysitism and Monotheletism"
articles in Ency. of Religion and Ethics
by Gustav Kruger Edinburgh 1915

الكتب الافرنسية

1 Mémoire sur la conquête de Syrie
Michœl J. De Goeje Leyden 1900

2 La Syrie
Henri Lammens Beyrouth 1911

3 Berceau de l'Islam
Henri Lammens Rome 1914

4 Histoire des Arabes
Sédillot Paris 1854

5 Histoire des Arabes
Clement Huart Paris 1913

فتح العرب للشام

المقالة الاولى

العرب الفاتحون قبل وصولهم الى دمشق

الفصل الاول

ملاحظات عامة بشان الفتح الاسلامي في سوريه

١

اسبابه ومميزاته

(١) الاسباب

ان فتوحات العرب في سورية لم تكن بنت يومها · وانما كانت نتيجة عوامل فعالة · وقد بحث المؤرخون فيما عسى ان تكون تلك العوامل· فرأى بعضهم كل الاهمية في عوامل لم ينتبه اليها غيرهم· ورأى مؤرخو العرب في الدين السبب الاوحد لتلك الغزوات· هذا ولا يخفى على القاريء النبيه ما يعانيه علماء التاريخ من الصعوبات في تعيين اسباب الحوادث بالضبط · فذلك من اصعب ما يرمي اليه المؤرخ· وليس ثمة من طريقة صحيحة لتعيين تلك الاسباب علَى ان المؤرخين يعملون على ايجاد طريقة يمكن بها التوصل الي معرفتها

وقد نسب بعضهم نزوح العرب الى سورية الى اسباب اقتصادية فقالوا ان بلاد العرب كانت غنية وناجحة اقتصادياً . ثم طرأت عليها تغيرات جوية ومناخية في العصر الجليدي . وسببت القحط الذي نحن بصدده[١] وصار العرب لا يستقرون على حال منذ فجر التاريخ يطردهم المحل والجوع من بلادهم الى ان كان الفتح الاسلامي . وهذه حركة متعلقة بتضعضع احوال جزيرة العرب الاقتصادية[٢] وقد كان الاستاذ فنكلر[٣] الالماني من اهم واضعي هذه النظرية ويتكلم عنها البرنس كيتاني كثيراً و يكتب الاب لامنس اليسوعي فصلاً كاملاً فيها في كتابه « مهد الاسلام » ويأتي باشعار فاه بها كثيرون من العرب ليؤيد نظريته[٤]

اننا لا ننكر ان بلاد العرب كانت توفد جماعات وشعوباً مختلفة بعضها تلو بعض الى البلاد السورية العراقية . وان آخر نزوح قبل الفتح الاسلامي حدث في القرن الثالث للميلاد . فنتج منه دولتان تحالفت احداهما مع مملكة الفرس والثانية مع امبراطورية البيزنطيين ، وهما دولتا الحيرة وغسان[٥]

(١) راجع كتاب « مهد الاسلام » للعلامة لامنس Lammens ج ١ ص ١٧٧

(٢) مهد الاسلام ص ١٧٤ بكر Becker ص ٣٣١

(٣) كان هذا استاذ اللغة الاشورية في جامعة برلين

(٤) لقد كتب هذا البحث بمناسبة الجهود التي تبذل لايجاد الوطن الاصلي للعنصر السامي في جزيرة العرب . ولهذا نورد هذه النظرية لزيادة الاطلاع اقرأ « مهد الاسلام » ج ١ ص ١١٣ — ١٢١

(٥) نكلسن ص ٣٣ ، الخلافة (مقالة لدى غويي في دائرة المعارف البريطانية ج ١ ص ٢٤)

ولكن ما هي البراهين المناخية والجيولوجية التي استند اليها اصحاب هذا الرأي ليثبتوا وقوع القحط ، وما هي الامكنة التي كان فيها ذلك القحط اشد وطأة و كيف يمكن تطبيق نظرية كهذه على بلاد لم تدرس درساً جيولوجياً ومناخياً مدققاً حتى الان ؟ تلك اسئلة ربما لا يقدر اصحاب هذه النظرية ان يجيبوا عليها والبراهين من الشعر لا يوثق بها ، فاذا فرضنا ان تلك الاشعار التي فيها تنويه الى السبب الاقتصادي قد قيلت في زمن تلك الحوادث . فما هي نسبة عددها الى عدد الاشعار الاخرى المعاصرة والتي لا تأتي على ذكر ذلك السبب . لذلك نرى ان هذه النظرية لا يعتمد عليها كسبب فعال للفتح ولا يمكننا ان نعدها الا مجرد فكرة ، الى ان يأتينا اصحابها ببراهين اقطع واوضح

ومن الاسباب الفعالة لنزوح العرب حرب الردة[٦] . وبيان ذلك انه لما اتحدت جزيرة العرب كلها تحت راية الاسلام وقامت وحدة الدولة مقام وحدة العشيرة ، وجد العرب انفسهم غير قادرين على غزو بعضهم خصوصاً وقد اجتهد محمد (صلعم) ان يقيد حرية الغزو بينهم[٧] ولما كان الغزو عند العرب هو الوسيلة الرئيسية لتوزيع الثروة ، ولما كان العرب من طبيعتهم

(٦) لم تكن هذه الحروب حروب ردة بكل معنى الكلمة لانها (ا) لم تكن ضد مرتدين بل بعضها كانت ضد عرب لم يعتنقوا الاسلام من قبل (ب) ان الذين ثاروا فحوربوا لم تكن ثورتهم ضد الاسلام كاسلام ، بل ضد الضرائب التي وجب عليهم دفعها فالكلمة « ردة » هي تفسير وضع مؤخراً : راجع بكر ص ٣٣٤)

(٧) مذكرة دي غويي ص ٤

يميلون الى الغزو وما يتبعه من الامجاد والاسلاب الحربية[٨] ويودون لو يدبروا منصرفاً لقوتهم الحربية لذلك اجبروا على ان يغزوا البلاد المجاورة على الحدود السورية

زد عَلَى ذلك ان كثيراً من العربان الذين اخضعهم سيف الاسلام كانوا يسكنون قرب الحدود السورية وكان لهم مع جيرانهم سكان الامبراطورية البيزنطية مخاصمات ومشاغبات ، فورثت الدولة الاسلامية تلك المخاصمات . وصارت منذ ذلك الحين تقود حملات غزو ضد العدو على الجانب الآخر من الحدود . هذا ولما كان من نتيجة حروب الردة في جزيرة العرب ايضاً ان تصادم المسلمون مع قبائل جوالة خاضعة لدولتي الحيرة وغسان[٩] ، ولما كان مرمى الاسلام ان يبسط سلطته عَلَى كل العرب حسب قول البعض[١٠]، فقد وجدت الدولة الاسلامية نفسها مشتبكة في حرب مع دولتي الحيرة وغسان ، وبالتالي مع المدائن وبيزنطية . ويقول بعضهم شيئاً عن الاحترام الذي قوبلت به انتصارات المسلمين في جزيرة العرب من قبل السوريين كعامل للفتح[١١] ويدعي غيرهم ان غزوة سورية كانت ترهيباً وحيلة عسكرية من قبل العرب بعد حروب الردة[١٢] وعلى كل فانه يمكننا اعتبار حروب الردة كسبب الفتح

(٨) القرآن « وتأليف القلوب » راجع لامنس ج ١ ص ١٧٥
(٩) تاريخ الاسلام للامير سيد علي ص ٢٤
(١٠) الخلافة دى غويي ص ٢٤
(١١) بكر ض ٣٣٦
(١٢) مهد الاسلام ض ١٧٧

وقد قيل ان الحركة الدينية في جزيرة العرب صادفت حركة قومية كبرى بين العرب عموماً بحيث انهم شعروا بتفوق قومي وباشتياق لاخضاع البلاد المجاورة وبالاختصار فانها كانت روح الوطنيين ضد الاجانب داخل بلاد العرب وخارجها[١٣] لذلك لا يمكننا اغفال ما للقومية من اثر في الفتح العربي الاسلامي

ان عدداً ممن كتبوا في هذه الموضوعات من الاجانب[١٤] لا يؤدون للديانة حقها من القوة في دفع العرب خارج جزيرتهم ، وانهم لمصيبون في ذلك نوعاً . على انه وان كان من الخطأ المحض ان ننظر الى نزوح العرب من جزيرتهم كحركة دينية فقط ، فانه لمن الخطأ ايضاً ان نجهل ما للدين من اهمية في تسبيب الفتوح . والذين يغفلون تأثير الدين في هذه المناسبة يعتمدون في برهانهم عَلَى عدم «اجبار الشعوب المغلوبة على ترك ديانتهم» اذا هم دفعوا الجزية . وان تغيير دينهم لم يكن مرغوباً فيه . لان الدخل المادي من الجزية يبطل بذلك ، فهم يقولون بالاختصار ان المسلمين لم يجاهدوا لاجبار غيرهم على اعتناق دينهم ، وكانوا يكرهون انتقال غير المسلمين الى دين الاسلام[١٥] . اننا لا ننكر ان العرب الفاتحين كانوا يخيرون اعداءهم في ثلاثة امور هي اعتناق الدين الاسلامي او دفع الجزية او الحرب . ولكنك ترى انهم كانوا يضعون

(١٣) مقالة بيفن Bevan عن « محمد والاسلام » في تاريخ العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٢٨
(١٤) وخصوصاً بكر في الفصل الحادي عشر من تاريخ كمبردج للعصور الوسطى ج ٢ ، ولامنس في « مهد الاسلام » ١٤٧ — ١٧٤
(١٥) بكر ص ٣٣٠

الجزية في المقام الثاني وتغيير الدين في المقام الاول ، وان ذلك مذكور في القرآن الكريم [١٦] . وهم مامورون به فذلك لا يدل على ان دعوتهم لم تكن الى الدين . وعلى كل فاننا نعلم ان النصارى وان دفعوا الجزية كانوا يحرمون من امتيازات كثيرة و يرهقون بشروط عديدة و كان عليهم ان لا يمنعوا احداً من اقاربهم اذا اراد الدخول في الاسلام ، كما سنذكر في شروط تسليم دمشق ، وهذا ما يبرهن ان نشر الدين الاسلامي كان من اهم البواعث عَلَى الفتح

واما كراهية المسلمين دخول الناس في دينهم فذلك امر لسنا متأكدين من وقوعه . واذا وقعت حادثة او اثنتان من هذا النوع فذلك لا يخولنا الحق بان نجزم بعدم تاثير الدعوة الاسلامية في تسبيب الفتح . لذلك لا يحق لنا ان ننكر ما للاسلام من قوة في ذلك الموقف . على ان اهميته تقع في طبيعته السياسية ، لان الديانة والدولة الاسلاميتين كانتا شيئاً واحداً ، ولم يعتم الاسلام ان اصطبغ بالصبغة القومية العربية وصار السعي وراء التوسع حثيثاً [١٧]

(٢) المميزات

هل كان للنبي او لخلفائه خطة واضحة لاستعمار البلاد المجاورة وادخالها تحت راية الاسلام و بناء مملكة كبيرة يحكمها عمال من المدينة ؟ وهل كان

(١٦) القرآن سورة التوبة آية ٢٩ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

(١٧) ان هذه المشابهة بين الدولة والديانة في الاسلام ربما قادت بكر وغيره الى اغفال اهمية الديانة كديانة في تسبيب الفتح

فتح سورية نتيجة اعمال تلك الخطط ؟ تلك اسئلة ما زالت تشغل افكار بعض الباحثين . وقد لا يتردد معظم مؤرخي العرب في قولهم ان ابا بكر بعد ما تم له ما اراد من استتباب الامن في جزيرة العرب اراد فتح سورية ، التي حلم النبي من مدة في فتحها حسب قول الواقدي ، وبعد ما استنفر الناس للجهاد وحضرت الجيوش ارسلها الى البلدان المجاورة معيناً لكل منها قائداً ومسمياً له منطقة نفوذه واعماله [١٨]

على ان اكثر المستعربين من علماء المشرقيات يتساءلون في صحة ذلك ويودون عدم قبوله . فيقول الاب لامنس ان النبي نفسه توفي بدون ان ينظر الى ما وراء حدود بلاد العرب وان ما ارسله الى شمال الحجاز من الحملات كان يكفي لاخماد تعطش العرب الى الغزو [١٩] . اما وقد ارسل الرسول حملة وصلت مؤتة [٢٠] عام ٨ او ٦٢٩ فذلك امر لا ننكره [٢١] ولكن ذلك لم يكن بقصد الفتح غالباً بل كاحتجاج ضد دولة الغساسنة ، حيث قتل رسوله الحارث بن عمير الطائي الذي حمل رسالة منه الى جبلة بن الايهم يدعوه فيها الى الاسلام [٢٢]

ونرى « بطلر » من الجهة الثانية يقول ان محمداً صلى الله عليه وسلم حلم

(١٨) راجع الواقدي ج ١ ص ٢ و ٣ ، الطبري ٢٠٧٨ — ٢٠٧٩ ، البلاذري ١٠٧ ، اليعقوبي ج ٢ ، ١٤٩ ، ابن الاثير ج ٢ ، ١٠٤ ، دحلان ج ١ ، ٣١

(١٩) مهذ الاسلام ج ١ ، ١٧٦

(٢٠) موءتة قرية عَلَى حدود البلقا وشرقي طرف البحر الميت الجنوبي

(٢١) راجع بشأن هذه الحملة ابن هشام ج ١ ص ، ٢٠٣ الخ

(٢٢) لقد ارسل محمد (حول عام ٧ ، ٦٢٨) رسلا الى ملوك الشرق يدعوهم الى الاسلام وقد ارسل فيمن ارسل دحية بن خليفه الى هرقل

ببناء مملكة كبيرة بعد فتح مكة(٢٣) فجهز جيشاً لجباً ضد فلسطين ولكنه لم يتجاوز في حملته حدود تبوك(٢٤)، وانه لممكن ان يكون النبي قد حلم ببناء دولة كبيرة ولكنه وجد من الحكمة ان يتراجع عن هذه الفكرة حينما رأى بغيته سقوط مشروعه لاول مرة. اما حملة اسامة بن زيد(٢٥) التي نظمها قبل مماته فانها عنيت ان تكون غزوة بسيطة لم يمكنه رفضها وذلك لان عسكره لم يكونوا ليصبروا على الجمود الذي اصابهم منذ يوم تبوك(٢٦) وقد يجوز ان ما فاه به الرسول من الاحاديث التي يأخذها بعضهم كشاهد عَلَى وجود فكرة بناء المملكة في مخيلته، قد قيلت قبل ان يتحقق فشله في حملة تبوك وغيرها(٢٧)

وقد مثل الخليفتان ابو بكر وعمر ترددات الرسول، واذا كانا قد تداخلا في امر تلك الغزوات، فذلك لانهما ارادا بذلك ان يمنعا استفحال امرها واتساع نطاقها ولكن طموح البدو وقوادهم غلب على تردد الخليفتين وهكذا جرتهما الحوادث الى ما كانا لا يتوقعانه. وقد حدث ان تلك الغزوات صادفت نجاحاً. ولما غلب العرب عَلَى امرهم اجبر الخلفاء على طلب الانتقام وبعث النجدات الى ان اوجدت الانتصارات النهائية فكرة الفتح التي كانت

(٢٣) بطلر: فتوح مصر ص ١٤٥

(٢٤) هي مدينة تبعد عن المدينة المنورة ٣٠٠ ميلاً شمالاً وكانت الحملة في رجب عام ٩ او ٦٣٠ ومن هناك وقع المسلمون معاهدة مع يوحنا حاكم ايلا (العقبة) راجع الطبري ج ٤ ص ١٦٩٢ — ١٧٠٥

(٢٥) هو ابن زيد بن حارثة الذي تبناه الرسول والذي مات مع آخرين في موئتة مهد الاسلام ص ١٧٦

(٢٦) مهد الاسلام ص ١٧٦

(٢٧) مهد الاسلام ص ١٧٧

مخفية بادىء بدء(٢٨). وقال بعضهم ان القبائل العربية كانت تغزو سورية البزنطية قبل الاسلام، ولكن غزواتها اتخذت شكلاً آخر وكثرت بعد ان ضمتها كلمة الاسلام وضعفت كلمة بيزنطية واخيراً صارت بشكل فتح منظم

اننا لا نجد مايمنع قبول هذه الاراء، ونحن لا يجب ان نقبل كل ما تقوله تواريخ الاسلام بهذا الصدد لان معظم تلك التواريخ قد كتبها قوم من المسلمين الذين يريدون ان يضعوا اساساً تاريخياً لشيوع الديانة الاسلامية. لذلك يجب ان نعترف انه لم يكن للمسلمين إبان الفتوح خطة ثابتة واضحة مبنية على المذاكرة والمداولة في المدينة الى ان كانت انتصاراتهم مكفولة وفاصلة، وان غزواتهم وهجماتهم اتخذت شكل غزوات سببها حب الحرب والسلب والشعور ببعثة الهية حتى ذلك الوقت. هذا ما يجب ان نعتقده الى ان نجد براهين اقطع واثبت. وسنرجع الى هذا الموضوع فيما يلي، ولنكتفي الان بدرس القسم الاول من الفتوح مع حفظ هذه الكلمات والنظريات كمرشدات في الدرس.

٣

لماذا انتصر العرب في فتوحاتهم

يقول العلامة بكر ناقلاً عن تيوفانس ما معناه: «ان ما دفع بالجيوش الاسلامية الى سورية لم يكن بعد نظر الخلفاء ليسيطروا عَلَى العالم وانما الدعوة التي طلبت بها قبائل العرب المتنصرة عَلَى الحدود السورية المساعدة من

(٢٨) مهد الاسلام ص ١٧٧

حكومة المدينة »[٢٩] قد يكون قول تيوفانس هذا ناتجاً عن كونه بيزنطياً ، و بالتالي مشتاقاً الى الحط من عظمة شأن المسلمين الفاتحين . وعلى كل يجب ان ندرس احوال سورية لنرى اذا كان في هذه الرواية شيئاً من الصواب ، ولنحدد درسنا حول اسرار نجاح الفتح الاسلامي العربي كما نراها في احوال سورية في تلك الآونة

لقد نصب هرقل امبراطوراً عام ٦١٠ م و بعد مرور اربع سنوات من تاريخ تنصيبه غزا الفرس سورية ودارت رحي الحرب بينهم و بين البيزنطيين سجالا حتى سنة ٦٢٨ حين تم لهرقل طردهم من بلاده[٣٠] على ان الحرب كلفته مبالغ طائلة ادت الى خراب خزينته . فجرب ان يسد العجز بجباية الضرائب الكثيرة من رعاياه وايقاف دفع الكميات التي كانت تعطى سنويا لقبائل قضاعة وجذم وهم عرب الحدود الذين كانوا يذودون عن طريق غزة[٣١] . وقد كانت نتيجة هذا ان كره العرب النصارى الحكم البيزنطي

وتستحق سياسة البيزنطيين الكنسية الذكر بهذه المناسبة . لما تم لهرقل النصر على الفرس ، ذهب الى اديسا (اورفه) ، وهي مركز القائلين بان للمسيح

(٢٩) بطلر (فتوح مصر) ، ص ١٥٤

(٣٠) تاريخ العرب لكليمن هوار Clement Huart ج ١ ص ٢٣٣ ، بكر ص ٣٤٥

(٣١) بكر ، ٣٤٠ ، والكمية التي كانت تدفع لهم نحو ٣٠ جنيهاً ذهباً . مذكرة دي غويي ص ٣٩

طبيعة واحدة[٣٢] ليمهد السبيل الى الوحدة الدينية المسيحية . ولكن عدم نجاحه في حمل السوريين على اعتناق مذهب المشيئة الواحدة او مذهب القائلين بان للمسيح مشيئة واحدة في طبيعتيه[٣٣] ، أدى الى اضطهادهم بسبب تمسكهم بارائهم في الطبيعة الواحده . وظل السوريون يشتكون سوء المعاملة حتى انقذهم اله الانتقام من ايدي البيزنطيين

وقد قال بطلر في هذا الصدد « ان مشروع الاتحاد الكنسي ادى الى خراب هرقل »[٣٤] زد الى ذلك ان الامبراطور امر بذبح اليهود قبل الفتح العربي تماماً فهرب كثيرون منهم الى ما وراء الاردن وما يليه من الصحارى . وهناك بعد المخابرات انخرطوا في سلك الجيوش الاسلامية وصاروا يعملون كمستشارين في طول البلاد وعرضها[٣٥]

ويزعم البعض بان الصلة القومية بين العرب السوريين واخوانهم في الصحراء كانت العامل الاكبر في نجاح الاسلام . واستقبلت القبائل السورية العربية تلك الصلة الجديدة بكل فرح ، وكان عملهم نتيجة قيام العنصر السامي

(٣٢) Mono physites وهم فئة من الكنيسة المسيحية يعتقدون بطبيعة واحدة ويرون المذهب الذي وضعه مجمع خلقيدونيه Calcedon (٤٥١ م) الذي قال بطبيعتين واحدة الهية واخرى بشرية للمسيح خطأ ، وسمى اصحاب هذا الرأي الذين ادار كنيستهم يعقوب برادعي — السروجي — (توفي عام ٥٧٨ م) اليعاقبة

(٣٣) وهم مع كونهم مستقيمي الرأي يقولون بان للمسيح ارادة واحدة وذلك حلا لمسألة وحدة شخص المسيح التي اتى بها اصحابها ولكن بناء على مذهب الطبيعتين ، و يقال لهذا الرأي Mono theletism راجع بشأن المذهبين دائرة المعارف للديانة والفلسفة الادبية مقال كروجر Kruger في المجلد الثامن

(٣٤) بطلر ، ١٥٨ ، بكر ٣٤٥

(٣٥) بطلر ، ١٥٩

ضد الحكم البيزنطي الاجنبي[٣٦] وقد قوته الاحوال الدينية والمالية

قد قيل ان هرقل ورجال الدولة حوله لم يتحقق الخطر من الاسلام وبينما كان زائراً في بيت المقدس اتى المسلمون الى موءتة « ليبدأوا مع البيزنطيين سلسلة حروب انتهت بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ »[٣٧] على ان جيوشه قهرت الغزاة بسهولة[٣٨] ولكن العرب لم يفقدوا شجاعتهم وغزوا غزوات اخرى : فقد قاد النبي صلى الله عليه وسلم حملة موءلفة من ٣٠٫٠٠٠ جندي الى تبوك ومن هناك ذهب خالد بن الوليد وافتتح دومة الجندل واسر حاكمها المسيحي[٣٩] ولم تصادف حملة تبوك نجاحاً باهراً ولكنها اوجدت علاقات ودية مع عرب جنوبي فلسطين[٤٠] وكان المسيحيون من عربان سورية داخل الحدود وخارجها مستعدين ان يضربوا بسيوفهم حيثما تقتضي المنفعة[٤١] وذلك ليعوضوا عن الخسائر التي الزمهم اياها البيزنطيون ، وقد قيل ان جيش موءتة كان فيه جماعة من العربان المسيحيين

وعلى كل فان هذه الظروف وهي الارهاق والخسائر المالية والاضطهاد

(٣٦) بطلر ، ١٥٠ ، بكر ٣٤٥

(٣٧) بطلر ١٤٤

(٣٨) يقول موءرخونا ان العرب كانوا ٣٠٠٠ محارب وجيش بيزنطية مئة الف مقاتل على ان في هذا مبالغة . راجع ابن هشام ج٢ ص ٢٠٣

(٣٩) واسمه اكيدر بن عبد الملك والقرية بين المدينة ودمشق في واحة جوف السرحان في شمالي بلاد العرب انظر معجم البلدان لياقوت

(٤٠) بكر ، ٣٤٠

(٤١) بطلر ، ١٥٦

لديني والصلة القومية مع الامل في النهب كانت عوامل مهمة في نجاح الفتح الاسلامي وفي تشجيع العرب المسيحيين ان يدخلوا جيوش الاسلام متى سنحت الفرص ، وقد برهن على مساعدة هوءلاء للاسلام ما سنراه من ان المدن البيزنطية البحتة قاومت العرب الفاتحين مدة اطول من المدن التي كان فيها اعنصر عربي او سامي كبير[٤٢] ولنا في تنويهات كتاب العرب الى مساعدة بعض الرهبان مثل على ذلك

ويضيف السير «ميور» عاملاً آخر في نجاح المسلمين . فقد قال ان البيزنطيين لم يعملوا جهدهم في حربهم ضد العرب لان البلاد مع كونها جميلة ومقدسة ، فانها كانت مقاطعة بعيدة[٤٣] . على انه هو الكاتب الوحيد الذي يذكر هذا على ما نعلم ، واننا نعرف من مصادر اخرى ان البيزنطيين تركوا البلاد بعد الجهد الجهيد وبألم كثير ، ولذلك لا يمكننا الاعتماد على عبارته هذه

وهنالك سبب آخر لنجاح المسلمين لا يجب اغفاله وهو ان المسلمين او قسماً كبيراً منهم كانوا يحاربون لاجل دعوة . وكانوا على يقين من انهم اذا لم يصيبوا ربحاً عاجلاً في هذه الحياة الدنيا فان اجرهم سيكون عظيماً اذا ماتوا وهم يحاربون في سبيل الله وانهم سيكافأون بجنات عدن يسكنونها[٤٤]

(٤٢) بكر ، ٣٤٥

(٤٣) ميور : اخبار ايام الخلافة الاولى ص ١٤٤

(٤٤) راجع النص الكريم القرآن سورة محمد آيات ٤—٦

الفصل الثاني

منذ البداءة حتى اجنادين

١

سير الجيوش الى سوريه

يقول عدد من كبار المؤرخين انه لما تكامل عدد الجيوش في المدينة سيرهم ابو بكر بالنظام التالي : فعقد لواء ليزيد بن ابي سفيان بدلا من خالد بن سعيد [٤٥] ولواء آخر لشرحبيل بن حسنه وامرهما ان يتخذا طريق تبوك فالبلقاء ، وعقد لواءً ثالثاً لعمرو بن العاص وامره ان يسير بقرب شاطئ البحر الاحمر الى ايلاء (العقبة) [٤٦] وهنا زودهم ابو بكر بنصائحه المشهورة التي جعلت للعرب منزلتهم الرفيعة في التفضل عَلَى الحقوق الدولية ، و كان عدد فرقة كل من هؤلاء القواد ثلاثة آلاف من الجنود وارسلت النجدات بعد ذلك حتى صار كل امير على سبعة آلاف [٤٧] اما مسير ابي عبيدة في ذلك الحين ، فتلك مسألة

(٤٥) عزل خالد بن سعيد ، وهو من بني امية ، عملاً بمشورة عمر بن الخطاب ووضع في فرقة شرحبيل : انظر الطبري ج ٤٢ ص ٢٠٧٩ ، البلاذري ، ١٠٨

(٤٦) والذين يوافقون على هذا النظام هم ابن اسحق في الطبري ، ٢٠٧٩ ، البلاذري ١٠٧ ، اليعقوبي ١٤٩ ، دحلان ٢١ ، و يعطي الواقدي تفاصيل اكثر ولكن الجوهر واحد انظر ص ٥—١٣

(٤٧) انظر البلاذري ١٠٩ ، لامنس : تاريخ سورية ج ١ ص ٣٤ ، مذكرة دي غويي ص ٢١ ، و يقول الواقدي ان يزيد كان اميراً على الف ، وابو زيد في الطبري ص ٢٠٧٩ ، ٢١٠٨ يقول ان لكل من شرحبيل و يزيد ٧٠٠٠ محارب

غير متفق عليها

يقول البلاذري ان ابا بكر اراد ان يعقد له عَلَى فرقة ولكنه استعفى [٤٨] على انه ينقل حديثاً عن ابي مخنف مؤداه ان ابا بكر ارسله في تلك المدة واخبر القواد الاخرين « واذا اجتمعتم في قتال فقائدكم ابو عبيدة » على ان هذا ليس مثبوتاً [٤٩] وقد اتخذ بعض كتاب الافرنج [٥٠] رواية البلاذري الاولى وعقدوا عليها اهمية كبرى فاثبتوا ان ابا عبيدة لم يرسل آنئذ و يغالي كيثاني [٥١] في قوله ان ابا عبيدة لم يظهر في سورية الا بعد معركة اليرموك (عام ١٥—٦٣٦) عَلَى ان معظم مؤرخي العرب يذكرون سير ابي عبيدة آنئذ [٥٢] وآخرون يذكرون تسميته اميراً في حالة اجتماع القواد [٥٣] وعلى كل فانه من الممكن ان يكون ارسل مؤخراً لينجد من تقدمه

ويروي سيف بن عمرو و يتبعه في ذلك ابن الاثير [٥٤] قصة طويلة عن حملة

(٤٨) البلاذري ص ١٠٨

(٤٩) مثله

(٥٠) مذكرة دي غويي ٣٤ ، لا يذكر لامنس سورية ص ٥٤ ارسال ابي عبيدة

(٥١) انظر بكر ٣٤٤ ، هارتمن في دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٩٠٤

(٥٢) الطبري ج ٤ ص ٢٠٧٩ ، ابن الاثير ج ٢ ص ١٥٥ ، ابو مخنف في البلاذري ١٠٨ ، واقدى ١٢ دحلان ٢٧

(٥٣) اليعقوبي ج ٢ ، ١٥٠ ، دحلان ، ٣٢ ، ابو مخنف ، الواقدي ١٢ يقول ان ابا بكر اشار على عمرو ان يستشير ابا عبيدة و يذكر تأميره على المهاجرين والانصار — اهل المدينة — وتأمير عمرو او يزيد — انظر امير على ، ٣٦ — على اهل مكة ، وهذا مصدر نزاع في الجيش

(٥٤) الطبري ٢٠٨٠—٢٠٨٥ ، ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٤—٥٥

خالد بن سعيد والنجدات التي ارسلت له تحت قيادة عكرمة بن ابي جهل والوليد بن عقبة وانكسارهم في موقعة مرج الصفر ورجوع خالد الى ذي المروة شمالي المدينة حينما جرده القواد المار ذكرهم من عسكره ، على انه لا يمكننا تصديق هذه الاخبار لان مرجعاً واحداً يذكرها ولا يوثق كثيراً بصدق رواية هذا المرجع

وقد ارسلت هذه الحملات في اوائل عام ١٣ (٦٣٤) حسب قول معظم المؤرخين [٥٥] ، ولكن بعض علماء الافرنج [٥٦] يثبتون ارسالها قبل نهاية عام ١٢ (٦٣٣—٣٤) وهذا معقول واقرب الى القبول لانه يعطي وقتاً كافياً للحوادث التالية ، كما سنبين لك في الصفحات الآتية . ولربما كان اول صفر عام ١٣ تاريخ ارسال نجدة تحت قيادة ابي عبيدة [٥٧] . ويذكر عدد من مؤرخي العرب ان ابا بكر وزع البلاد السورية على قواده حين سفرهم ، على انهم يختلفون في ذكر الاراضي التي خصصت لكل منهم [٥٨] ويتساءل كتبة الغرب في صحة

(٥٥) عمر بن شبة في الطبري ٢٠٧٩ ، البلاذري يذكر اول صفر عام ١٢ ص ١٠٨ ، ابن الاثير ١٤٥ ، دحلان ٢١ ، الفخري ، وابن اسحق في الطبري ، ٢٠٧٨ فقط يقول في عام ١٢

(٥٦) بكر يقول في خريف ٦٣٣ او آخر عام ١٢ : لامنس سورية ٥٤ ، مذكرة دى غوبي ٣٣

(٥٧) مذكرة دى غويي ص ٤٠

(٥٨) ابو جعفر الطبري ص ٢٠٩٠ يقول ان ابا عبيدة امر على حمص ، و يزيد على دمشق ، وشرحبيل على الاردن ، وعمرو على فلسطين ، و يقول ابو زيد في الطبري ٢١٠٧—٨ ان يزيد احتل البلقاء ، وشرحبيل وادي الاردن وابو عبيدة الجابية وعمرو العربات — و يوافق ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٥ على رأي ابي زيد ، ويوافق البلاذري ، ١٠٨ على كلام ابي جعفر ولكنه لا يذكر ابا عبيدة

هذا فيقول احدهم « واذا كان هذا التوزيع صحيحاً فاما ان يكون ابو بكر قد جهل الصعوبات القائمة في وجه قواده وظن ان سورية غير محمية ! واما ان يكون قد باع «جلد الدب قبل ان يقتله» [٥٩] . قد يكون مؤرخونا قد بالغوا في طبيعة توزيع مثل هذا ولربما قسم ابو بكر الاراضي على هذا الشكل ليتقي شر المنافسات والمخاصمات بين القواد الفاتحين حينما تطأ اقدامهم تلك الاراضي ، او ليشجعهم و يجعل فيهم عامل الربح دافعاً الى النصر

٢

فتح فلسطين الجنوبية

وافتتح يزيد تبوك في طريقه ولما اتى الى فلسطين من جهة الغرب صعد التلال التي تشرف على وادي العربه [٦٠] جنوبي البحر الميت وهناك فاجأ جيشاً بيزنطياً [٦١] يقوده سرجيوس بطريق (حاكم) قيصريه ، فانهزم البطريق وجيشه الى غزه ولكن جيشاً عربياً داهمهم في داثن وقهرهم وقتل سرجيوس نفسه [٦٢] . ويقول البلاذري [٦٣] ان يزيد التحم مع البيزنطيين في داثن ؛ وهي

(٥٩) مذكرة دى غويي ، ٧٦

(٦٠) وتستعمل العربات ايضاً انظر الطبري ، ٢١٠٨

(٦١) يقول بطلر ، ١٤١ ان العرب كانوا يدعوهم «الروم» و كانوا هم يفضلون ان يُدعوا بهذا الاسم . وكانوا يغضبون اذا دعاهم الناس - يونان - وكانوا يحسبونها اهانة . على ان كلمة — بيزنطيين — هنا اصح وانسب

(٦٢) راجع بشأن هذا ابا زيد في الطبري ٢١٠٨ لامنس — سورية — ٥٤ ، بكر ٣٥٠ ، ابن الاثير ١٥٥ ، دحلان ٢٢

(٦٣) البلاذري ١٠٩

قرية من اعمال غزه[٦٤] اولا ، وبعد ان تم له قهرهم ارسل ابا امامة الباهلي ليقاتل جيوشهم المحتشدة في وادي العربه وعددها ثلاثة آلاف تحت ستة قواد ، حسب قول ابي مخنف[٦٥] وهناك لاقاها وقهرها

اما عدد الجيش البيزنطي فانه مبالغ فيه وقد قيل انه كان مؤلفاً من بضع مئات من العساكر أفنتها كثرة عدد المسلمين[٦٦] ولكن لا يمكننا الجزم بصحة هذه الاقوال طالما فاه بها اناس يودون ان يحطوا من شان اعمال العرب الفاتحين . ويذكر العلامة دي غويي ان سرجيوس لم يقتل في داثن بل في اجنادين كما نعلم من تحرير ارسله له سوفرونيوس رئيس اساقفة القدس بعد ذلك التاريخ[٦٧] وبعض الكتاب لا يذكرون هذه المواقع قط[٦٨] على ان ابا حفص الشامي[٦٩] يذكر مستنداً الى بعض شيوخ سورية ان موقعة العربه كانت اول موقعة التحم بها المسلمون مع البيزنطيين

واما تاريخ موقعة داثن فان كتاب العرب لم يعينوه تماماً مع انهم يذكرون عام ١٣ كتاريخ عمومي لهذه المعركه . ويرتاي دي غويي انها

---

(٦٤) يقال لها داثنه ايضاً راجع الطبري ٢١٠٨ مذكرة دي غويبي ٣٠

(٦٥) انظر البلاذري ١٠٠

(٦٦) لامنس—سورية ٥٤ : تيوفانس في مذكرة دى غويبي ص ٣٤ يقول ان البيزنطيين كانوا ٣٠٠

(٦٧) مذكرة دى غويبي ٣٤

(٦٨) منهم اليعقوبي ، سيف ، الواقدي ، ميور

(٦٩) البلاذري ١٠٩

حدثت في اواخر شهر ذي القعدة عام ١٢ (كانون الثاني ٦٣٤) ويثبت لامنس وبكر وقوعها في شهر ذي الحجة من عام ١٢ (٤ شباط ٦٣٤)[٧٠]

٣

مسير خالد بن الوليد الى سورية

يقال انه لما وصل عمرو بن العاص الى جنوبي فلسطين تطلع الى الجيش البيزنطي فهاله عدده فكتب الى ابي بكر عن ذلك وطلب منه النجدة فكتب ابو بكر الى خالد في العراق يستدعيه الى معونة اخوانه في سورية[٧١] . وانها لحقيقة راهنة ان تيودورس شقيق هرقل ، الذي كان آنئذ في حمص[٧٢] قاد جيشاً لجباً نزل به ثنية جاّق في جنوب غربي حوران[٧٣] وربما استنجد عمرو وباقي المسلمين ابا بكر عند ما رأوا انفسهم في خطر من تلك الكتائب[٧٤] وهنالك مجال للجدال في مسألة قيادة جيوش الاسلام المتحدة . فان بعض الذين يعتقدون بتأمير ابى عبيدة على جيوش الاسلام في باديء الامر ، يرفقون

---

(٧٠) مذكرة دى غويبي ٤٠ ، بكر ٣٤٠ ، لامنس—سورية ٥٤

(٧١) راجع البلاذري ١٠٩ ، ابن اسحق في الطبري ٢١٠٧ ، ٢١٢١ : الواقدي ٢٠

(٧٢) يقول البلاذري ، ١١٤ ان هرقل بقي في حمص حتى اجنادين ، وآخرون يقولون انه هرب منذ البداءة الى انطاكية ، يقول ابن الاثير ان هرقل كان في القدس وعرض التسليم على الاهالي فلم يقبلوا فذهب الى حمص وارسل جيشاً تحت تذارق اخيه

(٧٣) ابن اسحق في الطبري ، ٢١٠٧ ، لامنس ٥٤

(٧٤) يقول اليعقوبي ١٥٠ ، ودحلان ، ٢٢١ ان ابا عبيدة هو الذي كتب الى ابي بكر ، ويقول سيف واتباعه ان طلب النجدة من ابي بكر كان اثناء اليرموك فكتب هذا الى خالد ، انظر الطبري ، ٢١١١ ، ابن الاثير ، ١٥٦ ، ميور ١٠٠ ، فايل في تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٤٠ يقول ان خالداً اتى بعد سقوط بصري ومعركة اجنادين

تحرير ابي بكر الى خالد بامر عال من لدنه يجعله قائداً عاماً لجيوش الاسلام في سورية[٧٥] ويعطي البلاذري ثلاثة آراء في هذا الصدد فيقول «فيقال ان ابابكر جعله اميراً عَلَى الامراء في الحرب وقال قوم كان خالد اميراً على اصحابه الذين شخصوا معه ، وكان المسلمون اذا اجتمعوا لحرب امره الامراء فيها لباسه وكيده ويمن نقيبته »[٧٦] ولنترك الان مسالة القيادة حتى ذلك الوقت وبعده الى ما يلي هذا من الفصول

وبعض الاجانب[٧٧] لا يذكرون كتاب ابى بكر الى خالد ويكتفون بالقول ان خالداً ظهر امام اسوار دمشق . ولربما يظنون ان خالداً اتى سورية من طوع ارادته ، وهذا خطأ على ما نظن . وخصوصاً لما نعرفه من حب خالد ان يكون افتتاح العراق على يده ، ومن حزنه لما اتاه امر ابي بكر بالذهاب الى الشام[٧٨]

ويذكر عدد من الكتاب[٧٩] ان خالداً كان في الحيرة لما اتته رسالة ابي

---

(٧٥) يقول الواقدي ، ٢٠ ان كتاب الامارة وصل خالداً مع نجم بن مقدم الكناني وكتب خالد الى ابي عبيدة عن عزله مع عامر بن الطفيل ، دحلان ، ٢٣ يعطي الاخبار نفسها

(٧٦) البلاذري ١٠٩

(٧٧) بكر ، ٣٤١ ، سورية ٥٤

(٧٨) ابن اسحق في الطبري ، ٢١٢١ : لما اخذ خالد كتاب ابي بكر يأمره بالمسير الى سورية قال هذا عمل الاعيسر بن ام شملة (عمر بن الخطاب) فقد كره ان يكون فتح العراق عن يدي

(٧٩) البلاذري ١١٠ ، ابن اسحق في الطبري ٢١٨١ ، سيف وابو جعفر في الطبري ٢١١٢ و٢١٠٩

بكر ومنها سار . ويذكر الواقدي[٨٠] وحده انه كان يكاد يفتتح القادسية . وعلى كل فانه قبل ان يترك العراق جعل المثنى بن حارثة الشيباني[٨١] قائداً عَلَى ما بقي من الجند وسار معه عدد غير معلوم من العساكر يتراوح بين عشرة آلاف وبين خمسمائة[٨٢] على ان العدد الاول مبالغ فيه جداً ، ويمكننا ان نحكم من فرقة العراق التي رجعت بعد فتح دمشق وكان عددها سبعمائة ، ان الكتيبة التي سار بها لم تقل عن الثمانمائة اذا حسبنا ان مئة جندي قتلوا منها[٨٣]

اما تعيين تاريخ مسير خالد من العراق فتلك مسالة لم يجزم بها ويختلف ذلك التاريخ من محرم عام ١٣ الى ربيع الثاني من نفس العام (اذار-حزيران ٦٣٤)[٨٤]

عَلَى اننا نجد الذين يذكرون التاريخ الثاني مخطئين اذا عرفنا ان معركة اجنادين[٨٥] التي شهدها كانت في جمادى الاولى وان المسافة تقتضي وقتاً

---

(٨٠) الواقدي ٢٠

(٨١) الطبري ٢١٢٢ ، دحلان ٢٣ ، يعقوبي ١٥٠ ، ابن الاثير ١٥٦ البلاذري ١١٠

(٨٢) يقول سيف في طبري ٢٠٩٠ عشرة الاف ، دحلان ٢٣ يقول تسعة الاف ابن الاثير ١٥٦ يقول ٨٠٠ او ٥٠٠ او ٦٠٠ او ٦٠٠٠ او ٩٠٠٠ ، ويقول ابو جعفر الطبري ٢١٠٩ ، ٨٠٠ او ٥٠٠ ، ويقول البلاذري ٤٠ ، ٨٠٠ او ٦٠٠ او ٥٠٠

(٨٣) مذكرة دى غويي ، ٣٧

(٨٤) يقول البلاذري ، ١١٠ في ربيع الثاني عام ١٣ ، وسيف في الطبري ٢٠٨٩ وابو جعفر الطبري ٢٥٠٩ ، ودحلان ٢٣ يقول ان خالداً وصل اليرموك في ربيع الثاني عام ١٣ ، يقول بكر ٣٤١ ان تاريخ وصوله الى دمشق كان في نيسان عام ٦٣٤ او صفر عام ١٣

(٨٥) انظر كلامنا عنها فيما بعد

طويلا[٨٦] وان كتيبة خالد اغارت عَلَى بني غسان في مرج راهط يوم فصحهم[٨٧] فبالنظر الى هذه الامور يمكننا قبول التاريخ الذي ارتآه دي غويبي وهو صفر عام ١٣ (نيسان ، ٦٣٤)[٨٨]

وهنا يتجلى لنا خطأ الذين يؤرخون مسير الجيوش من المدينة في اوائل عام ١٣ لان سفر تلك الجيوش الى سورية و كتابة القواد الى ابى بكر في طلب النجدة بعد وصولهم الى سورية ثم كتاب ابى بكر الى خالد — كلها حوادث تقتضي وقتاً طويلاً لا يسمح به التاريخ المعطى (عام ١٣) ويسمح به التاريخ الذي يعطيه الاخرون وهو قبيل نهاية عام ١٢

ولا يتفق المؤرخون في ذكر المدن التي اخذها خالد في سيره الى سورية[٨٩] على ان النتائج التي وصل اليها دى غويي[٩٠] تفي بغرضنا هنا. فقد فتح خالد في طريقه من الحيرة الى الشام المحلات الآتية :—

---

(٨٦) تستغرق المسافة بين الحيرة ودمشق شهراً اذا حسبنا ان خمسة ايام قراقر وسوى طبري ، ٢١٢٢

(٨٧) طبرى ٢١٠٩ ، بلاذري ١١٠

(٨٨) مذكرة دى غويبي ٤١

(٨٩) البلاذري ١١٠ يقول ما يلي : عين التمر فصندوداء او حدوداء فخصيد فقراقر فسوى فاركه فدومة الجندل فكسيم فتدمر فالقريتين فحوارين فمرج راهط فدمشق و يقول ابن اسحق في الطبرى ٢١٢١ : عين التمر فقراقر فسوى فمرج راهط ، و يوافق ابو جعفر الطبرى على راي البلاذرى . ويحذف عين التمر ودومة الجندل

(٩٠) مذكره دى غويبي ٤١— ٤٥

عين التمر فقراقر فسوى[٩١] فارك فتدمر فالقريتين فحوارين[٩٢] فمرج راهط. وهكذا يظهر ان مستشرقنا لم يسلم بمرور خالد بدومة الجندل بخلاف البلاذري. وهو يعتقد ان مدينة (دومة) التي افتتحها خالد كانت قرب الحيرة وليست دومة الجندل ، لان حملةً من الحيرة الى دومة الجندل هي نوع من الخروج عن القصد الاول من تلك الحملة . ولكي يصل الى تلك المدينة عليه ان يجتاز بادية السماوة بكاملها وهذا العمل اسراف بالوقت والقوة

وقد سار خالد من مرج راهط الى بصرى حيث التقى بالقواد الثلاثة يزيد وشرحبيل وابي عبيدة ، فساعدهم في فتح مدينة بصرى ثم ذهب واياهم لينجدوا عمرو ابن العاص في وادي العربة. على ان البيزنطيين غيروا مكانهم وقصدوا اجنادين[٩٣] ويقول بعضهم ان خالداً ذهب الى دمشق وجعل مركزه

---

(٩١) يروي معظم مؤرخي العرب ان من قلة الماء بين قراقر وسوى اتى خالد الى رافع بن عميرة بعشرين ناقة فعمد رافع اليهن فظمأهن حتى اذا اجهدهن عطشاً اوردهن فشربن حتى اذا انملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كممهن لئلا يجتررن ثم اخلى او بارهن فكلما نزل منزلا بعد سيره اقتظ اربعة منهن فاخذ ما في اكراشها فسقاه الخيل ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء . ثم حفروا في اصل شجرة عوسج فاستخرجوا عيناً فشربوا حتى روى الناس وقال احد شعراء المسلمين

لله عينا رافع انى اهتدى   فوز من قراقر الى سوى
خمساً اذا ما ساره الجيش بكى   ما سارها قبلك انسي يرى

(٩٢) تبعد حوارين ثلاث ساعات عن القريتين ويقول ابو حذيفة هي نفسها : ياقوت ج ٣ ، ٣٥٨

(٩٣) فتحت مدينة بصرى على دفع الجزية. بشأن هذه وغيرها راجع الطبري «ابن اسحق» ٢١٢٥ ، مذكرة دى غويي ٤٩ ، الواقدى ٢٥ يقول ان بصرى فتحت بخيانة حاكمها رومانس

في الثنية وبعد بضعة ايام قصد الجابية ، ومن هناك ذهب وابى عبيدة الى بصرى ليجدا شرحبيل [٩٤] ويقول بكر ان خالداً عرف ضعف حركة المسلمين في الجنوب فسار بدون ان يمسه احد من اسوار دمشق الى جهة الجنوب ، وهكذا برهن عن تضحية عظيمة وانكار ذات وهناك شاهد قواد المسلمين منهمكين في منافعهم الشخصية قرب وادي العربة · وبعد ان التقى بهم ساروا جميعاً ليلاقوا البيزنطيين تحت قيادة تيودرس ، وقد اتخذوا اجنادين او جنابتين مركزاً لهم [٩٥] ويتفق هذا الرأي مع طبيعة الفتح الاسلامي، ويصور لنا القواد وجيوشهم بشكل غزاة يهمهم السلب فوق كل شيء على اننا لا نعلم مقدار هذا الحديث من الصحة

الفصل الثالث

موقعة اجنادين

وبعد ما انتصر العرب في داثن صاروا يغزون فلسطين الجنوبية حتى مدينة غزه · فامر الامبراطور اخاه تيودروس ان يسير في جحفل الى جنوبي دمشق بدون ان يكون له خطة معينة للهجوم ، لان العرب لم يكن لهم قصد

(٩٤) تبعد الجابية نحو يوم الى جنوب شرقي دمشق ، البلاذرى ١١٢—١٣ ، وثبت خالد راية النسر التي كانت للرسول على الثنية ومن ذلك سميت ثنية العقاب · ثم فتح ابو عبيده موٓاب في البلقا صلحا

(٩٥) بكر ص ٣٤١ ابن الاثير ١٥٧ وغيره ممن يعتقدون ان اليرموك كان في ذلك الوقت يقول ان خالداً ذهب من بصرى ليلاقي المسلمين على اليرموك

متضح في غزواتهم ، اذ كان كل قائد يرتاد المحل الذي فيه فرصة كبرى للكسب · ومن الممكن ان تكون جيوش تيودورس قد قهرت فرقة من العرب في شرقي الاردن ، ولكن هذا القائد تقدم الى جهة الجنوب حيث هدد الخطر املاك البيزنطيين ، لان اورشليم لم يعد لها منفذ الى البحر ، واصبحت غزة وقيصرية في الخطر الشديد [٩٦] وفي هذه الظروف اتى خالد كما ذكرنا سابقاً [٩٧] والتقى مع العرب وسار الجميع ليلتحموا مع البيزنطيين في معركة قرب اجنادين

اما اجنادين ، مكان المعركة ، فانها مع ان موضعها غير معين بالضبط ، من كورة بيت جبرين [٩٨] وبعضهم يضعونها بين هذا المكان والرملة [٩٩] وغيرهم يقولون انها بين القدس وغزه [١٠٠] وكلا الرأيين على صواب، على ان الاول اضبط ويختلف المؤرخون في عدد جيوش البيزبطيين فيبالغ البلاذري في قوله انهم كانوا مئة الف محارب [١٠١] ويقول لامنس عندما يتكلم عن ذلك الجيش ،

(٩٦) بكر في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى ج ٢ ص ٣٤١

(٩٧) راجع الصفحة السابقة ، يقول الواقدى ص ٣٦ ان المسلمين كانوا قد ابتدأوا حصار دمشق ولما اقترب جيش البيزنطيين تحت قيادة وردان، اجبروا ان يتركوا الحصار ويحاربوهم

(٩٨) يجوز اجنادين واجنادَين بفتح الدال ولكن الثانية اصح · راجع بشأن موقعها في كورة بيت جبرين معجم البلدان ج ١ ص ١٢٦

(٩٩) انظر ابن اسحق في الطبرى ٢١٢٥ ، ابن الاثير ١٦٠

(١٠٠) بكر ٣٤١ · يقول كرد علي في خطط الشام انها قرب القدس وهذا ليس بواضح

(١٠١) فتوح البلدان ، ١١٣

ان تلك الالاف القليلة من حاميات المدن والعساكر الامبراطورية بدون تدريب حربى ، لم تكن لتوقع الرعب في قلوب العرب[١٠٢] على انه يبالغ في قلة تنظيم الجيش البيزنطي وفي قلة عدده، ولا نعلم الى اي المصادر يستند في قوله هذا

وانتصر العرب عَلَى الاعاجم ، ولكن من كان قائدهم ؟ وهل كان لهم قائد واحد في تلك المعركة؟ ذلك سر غامض مع ان بعض كتاب العرب[١٠٣] يعترفون بقيادة خالد في هذه المعركة . على انه ليس من المستبعد ان نرى في خالد القائد المنتصر والشخصية البارزة في تلك المناسبة وهذا راجع الى شجاعته وسطوته . وقد وقعت المعركة في ٢٨ جمادى الاولى عام ١٣ (٣٠ تموز ٦٣٤) حسب قول عدد من المؤرخين[١٠٤] ، عَلَى ان بعضهم يقدمونها او يؤخرونها اسبوعاً[١٠٥] ويروي سيف بن عمرو واتباعه انها حدثت بعد فتح دمشق ويضعون اليرموك مكانها ، وسنرى كيف وقعوا في الخطأ

وصارت فلسطين بعد انتصار العرب ميداناً حراً لاعمالهم المختلفة ولكن المدن ذات الحصون المتينة قاومت مدة طويلة . وشملت الفوضى ربوع فلسطين كما يتضح لنا من خطبة صوفرونيوس في اورشليم

ومن الموافق في هذه المناسبة ان نذكر آراء العلامة الكبير دى غويي

---

(١٠٢) لامنس «سورية» ج ١ ، ٥٤

(١٠٣) راجع مسير خالد الى سورية

(١٠٤) ابو زيد وابن اسحق في الطبرى ٢١٢٧و٢١٢٦ ، يعقوبي ج ٢ ، ١٥١ ومؤرخون اجانب مثل فايل دى غويي ، بكر . يقول جبن ، ٣١٨ انها حدثت في ١٣ تموز عام ٦٣٣ « ٣٠ ربيع الثاني عام ١٢ » وهذا ما لا يمكن تصديقه

(١٠٥) يعطى البلاذرى ، ١١٤ هذه التواريخ للمعركة ١٨ جمادى الاولى ، ١ و٢و٢٨ جمادي الاخرى عام ١٣ ، والواقدى ، ٥٩ يقول ٦ جمادي الاولى عام ١٣

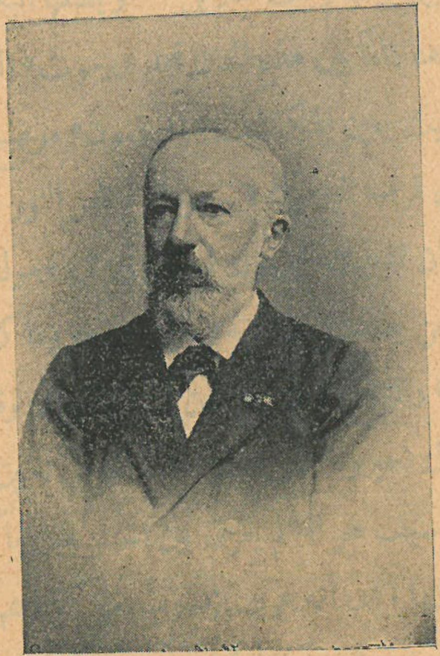

MICHAEL JAN DE GOEJE

المستعرب الهولندي الكبير ميخائيل دي غويي ١٨٣٦ — ١٩٠٩

استاذ اللغة العربية في جامعة ليدن سابقاً

تكرم باهدائنا هذا الرسم تلميذه الدكتور هورغروني

استاذ اللغة العربية في جامعة ليدن

في موضع اجنادين وعدم تمييزها عن اليرموك. يقول حضرته(١٠٦) ان الرواية التي تجعل موقعة اليرموك في هذه الآونة بدل اجنادين ، قديمة لم يخترعها سيف بن عمرو. وانه لمن الواجب علينا ان نجد اصل هذه الرواية. يقول ابن اسحق ان اجنادين واقعة بين الرمله وبيت جبرين(١٠٧) و يضعها البكري بين الرمله والخليل (حبرون) . وهنا تماماً بين هذه المدن نجد «يرموث» القديمة التي كانت تدعى «يرموتشا» وحيث يعين المكتشف «روبنسون» موضع اليرموك . فاذا سلمنا بان اجنادين هي قرب اليرموك « يرموث » ظهر النور في حالك الظلام. اذاً فهنالك معركتان تدعيان اليرموك ، فالاولى هي يرموك (يرموث) وهي موقعة اجنادين التي نحن بصددها والثانية هي يرموك (هيروماكس) وهي التي يذكرها الكتاب عادة ، والتي اتخذت اسمها من نهر اليرموك. وقد سبب ابدال يرموك (يرموث) بيرموك (هيروماكس) تلك الاغلاط في تعيين التواريخ . وسبب الخطأ في رواية سيف هو انه لم يفرق بين اخبار هيروماكس واخبار اجنادين او يرموك (يرموث) ، اي انه عرف بحدوث معركة اسمها اليرموك، ولكنه لم يميز الاولى اي يرموث من الثانية اي هيروماكس ، فلذلك روى اخبار هيروماكس بدلا من يرموث او اجنادين

ان هذه النظرية خطيرة جداً ومفيدة ، لانها تشرح لنا اسباب الخطأ في كثير من تواريخ العرب وكتب الافرنج التي تبعتها على ان نقطة الاتصال

---

(١٠٦) مذكرته ص ٥٩ « يقول ان اجنادين ليست مشتقة من كلمة « جند » ولكنها اسم مكان اصلي

(١٠٧) الطبري ، ٢١٧٥

ضعيفة بين القرية المدعوة يرموث والمكان المعروف باجنادين ، فاذا عرف ان المكان «اجنادين» كان يدعى احياناً باسم المكان الذي قربه اي يرموث فحينئذ لا بأس من قبول هذه النظرية لما فيها من الفائدة

الفصل الرابع

حوادث هامة في العالم الاسلامي

١

وفاة ابي بكر ومسألة قيادة الجيش

و بعد ان انتصر العرب في موقعة اجنادين بوقت قصير ، توفي ابو بكر . وتاريخ وفاته متفق عليه تقريباً ، فالمؤرخون لا يختلفون بانه حدث في شهر جمادى الثاني عام ١٣ (آب ٦٣٤) . على ان هنالك اختلافاً فيما اذا كانت وفاته في الحادي او الثاني والعشرين من ذلك الشهر (جمادى) اي ٢٢ او ٢٣ آب [١٠٨] ولربما دل التاريخان على نفس النهار لانه باختلاف الحسابات ورؤيا القمر اعطى نفس النهار تاريخاً مختلفاً في محلات مختلفة . اما البلاذري الذي يضع معركة اليرموك بعد معركة اجنادين ، وسيف بن عمرو [١٠٩] ، فانهما يقولان

(١٠٨) الواقدي وحده يقول ص ٥٩ انه توفي في ٢٩ جمادى الاولى عام ١٣ اي ان اجنادين كانت في ٦ جمادى الاولى اي ٢٣ يوماً قبل وفاته . ابن اسحق في الطبري ٢١٢٧ يقول سبع او ثمان ليال قبل آخر جمادى الثاني يقول ميور ٢١ جمادي الاولى ولكن الاخرين يقولون في ٢٢ جمادى الثاني: ابن الاثير ١٦٠ ، ابو الفداء ١٦٧ ابو زيد في الطبري ١١٢٨ ، العقد الفريد ج ٢ ، ١٩٨ ، اليعقوبي ، ١٥٤

(١٠٩) البلاذري ١١٤ سيف في الطبري ٢٠٩٦ ، وفايل في جبن على هامش ص ٣٢٢

ان خبر وفاة ابي بكر وصل المسلمين اثناء معركة الياقوصة على اليرموك

و بما ان ابا بكر توفي في اواخر جمادى الثاني ، فان خبر وفاته يجب ان يكون وصل المسلمين في شهر رجب لان العهد لم يكن عهد برقيات لاسلكية لذلك وجب ان تكون المعركة حدثت في شهر رجب اذا صدقنا اقوالهم من ان خبر وفاة ابي بكر وصل اثناء المعركة . فاذا حدثت المعركة في رجب ، ونحن نعلم ان معركة اليرموك حدثت في رجب عام ١٥ ، فقد يكون سيف واصحابه قد ضلوا فوضعوا معركة اليرموك (هيروماكس) بدل يرموك (يرموث) التي حدثت عام ١٣ للهجرة . و بالفعل فان البلاذري يعود فيذكر معركة اليرموك ثانية في رجب عام ١٥ بعد ان ذكرها عام ١٣ [١١٠]

اما مسألة قيادة الجيوش الاسلامية فانها ذات شان كبير في هذه المناسبة ولها علاقة كبرى بفتح دمشق كما سنرى . وقد شغل حلها اكثر من دماغ واحد . يقول عدد من كتاب العرب انه لما توفى ابو بكر اصبح عمر بن الخطاب خليفة ، فعزل خالد بن الوليد من القيادة العليا وذلك لعداوة شخصية بين الاثنين يذكر بعض المؤرخين حكايتها مطولا و يروون القصص في شانها ، وقد قيل ان ابا بكر كان اعطاه هذه القيادة حين مجيئه الى سورية . وولى عمر ابا عبيدة مكانه . على ان كتابنا لا يتفقون على الوقت الذي تولى فيه ابو عبيدة القيادة العليا ، فبعضهم يقول انه كان قبل حصار دمشق وآخرون يقولون بعده . والذين يضعون معركة اليرموك في تلك السنة يقولون ان امر عمر بتولية ابى عبيدة اتى اثناء المعركة مع خبر الوفاة ، ولكن ابا عبيدة كتمه حتى

(١١٠) البلاذري ١٣١

انتهاء المعركة[١١١] ويقول دى غويبي[١١٢] في هذا الصدد ان عدم التفريق بين اليرموك الاولى والثانية ومعرفة بعضهم، ان احداهن كانت آخر مشهد لقيادة خالد، حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بعزله في اليرموك الاولى . والواقع انه لم يكن هنالك معركة تدعي اليرموك ليعزل اثناءها . ان بعض كتابنا لم يفرقوا بين هذه المعركة التي هي معركة اجنادين ومعركة اليرموك الحقيقية في رجب عام ١٥

ولنرجع الى الحقيقة ولنبحث فيم اذا كان خالد قائداً آنئذ ليعزله عمر من القيادة . يقول بكر[١١٣] انه لم يكن هنالك قائد للجيوش الاسلامية معين من لدن المراجع العليا، حتى ذلك الوقت، واذا كان خالد قد ظهر بمظهر القيادة، فذلك لان القواد الآخرين انتخبوه لشجاعته . وهنالك شيء بهذا المعنى في احدى روايات البلاذري التي ذكرناها آنفاً، ويمكن تثبيت هذا الرأي اذا علمنا ان خالداً انتخب اميراً عَلَى الجيش يوماً واحداً وذلك يوم موقعة اليرموك

---

(١١١) سيف ابو جعفر وابن اسحق في الطبري ٢٠٩٦، ٢١٤٤، ٢١٤٦ . اليعقوبي ١٥٨ : ولم يخبر ابو عبيدة خالداً عن عزله الا بعد انتهاء الحصار حين قال خالد « رحمة الله على ابي بكر، لو كان حياً ما عزلني » البلاذرى ١١٥ « وصل الكتاب مع عامر بن ابي وقاص الى ابي عبيدة ويقول بعضهم انه وصل والمسلمين محاصرين دمشق فكتمه ابو عبيدة » الواقدى، ٨٦ يقول ان خالداً عزل بعد حصار دمشق . الفخرى ٦٨ يقول ان ابا عبيدة تلقى خبر عزله بينما المسلمون يحاربون واخبر خالد عن عزله بعد سقوط دمشق وامضى خالد المعاهدة التي انهت الحصار

(١١٢) مذكرته ص ٦٥

(١١٣) بكر ٣٤١

كما روى سيف[١١٤] . ويسلم بكر[١١٥] بان خالداً كان قائداً اثناء المدة التي انقضت بين موقعة اجنادين ومحاصرة دمشق، ولكن لا يوافق على فكرة وجود قائد عام معين بصفة رسمية الا بعد معركة اليرموك عام ١٥ عند ما ارسل ابو عبيدة كقائد عام لتلك الجيوش . ويقول ميور[١١٦] ان خالداً حمل زملاءه من القواد الاخرين على تسميته قائداً في يوم اليرموك كي لا تتقد نار الحسد في قلوبهم بنيله القيادة مباشرة بل لينالها برضى باقي القواد، مع انه يقول قبل ذلك ان تعيين خالد قائداً لا يتفق مع فكرة القيادات المتفرقة التي منحها ابو بكر في بادىء الامر

ويذكر دى غويبي ان القيادة كانت بيد عمرو بن العاص حتى مجيء خالد[١١٧] من العراق وبما ظلت كذلك حتى معركة اجنادين، وذلك لان ابن الاثير الذي يعين معركة اجنادين في عام ١٥ — وكان عليه ان يضعها في عام ١٣ — يذكر ان عمرو كان القائد[١١٨] . وقد يجد الباحث اشارات الى هذه الفكرة في بعض مؤلفات نقرأ فيها ان باقي الجيوش استشارت عمرو عند ما اتت جيوش هرقل، وان عمرو هو الذي كتب الى ابي بكر عن الجيش

---

(١١٤) البلاذري ١٠٩ « وقد يكون انتخبه الامراء اميراً عليهم لبأسه »: سيف في الطبرى ٢٠٩٢

(١١٥) بكر ٣٤٣

(١١٦) ميور ١٤٣

(١١٧) مذكرة دى غويبي، ٢٤

(١١٨) مع ان ابن الاثير يضعها في عام ١٣ ايضاً

البيزنطي الكبير (١١٩) ولكننا لا يمكننا الاعتماد على هذا الرأي الى ان نظفر ببراهين اكثر واقوى

واذا كان ابو بكر قد امر خالداً ان يتولى قيادة الجيش عند قدومه الى سورية فليس ثمة من داع لان يعزله عمر (١٢٠) بقول دى غويي ان من الخطأ تصديق قول كثيرين بان عمر ولى ابا عبيدة القيادة مكان خالد حين اصبح خليفة بعد ابي بكر لانه كان في امكانه ان يأمر بذلك العمل عند ما كان الحاكم الحقيقي في خلافة سلفه ، ولا يصعب عليه عمل مثل هذا وهو الذي حمل ابا بكر على عقد اللواء ليزيد بن ابي سفيان بدل خالد بن سعيد في بادىء الامر (١٢١) وهو الذي اشار الى ابي بكر بان يامر خالدان يذهب لنجدة اخوانه في سورية ولم يكن امره هذا لانه كره ان تفتح العراق عن يد خالد كما اشار بعض مؤرخي العرب (١٢٢) . على انا نقول رداً على رأي دى غويي هذا بانه لم يكن في امكان ابي بكر ان يقبل كل نصائح عمر ، واذا كان قد عمل ببعضها فليس ذلك ببرهان على ان كل ما يقوله عمر كان يقبله ابو بكر ويامر بتنفيذه

ولنوجه نظرنا الان الى هذه النقطة . من قاد الجيوش الاسلامية بعد شهر رجب عام ١٣ واثناء محاصرة دمشق ؟ لانه على كل حال هذا ما نريد الوصول اليه من كل هذا البحث ، ومعرفة من كان القائد اثناء الحصار مهم جداً وله علاقة قوية بطبيعة الفتح كما سنرى . يقول بعض مؤرخي العرب

---

(١١٩) البلاذرى ١٠٩ ، سيف في الطبري ٢٠٨٧

(١٢٠) مذكرة دي غويي ٦٦—٦٧

(١٢١) راجع ما كتب من هذا المقال قبل

(١٢٢) الطبري ٢١٢١

و كتابهم ان ابا عبيدة كان القائد بدل خالد ، على ان بعضهم يقرون ببقاء القيادة في يد خالد الى ما بعد الفتح كما اشرنا سابقاً ولكن هذا خطأ حسب رأي دي غويي ، فهو يستند على يوتيشيوش بقوله ان عمر عزل عمرو من القيادة وولى خالداً مكانه (١٢٣) وهذا يخالف آراء اكثر كتاب العرب

ولكن بقطع النظر عن قيادة عمرو وعزله منها فانه يمكننا ان ندعم فكرة قيادة خالد بعد شهر رجب عام ١٣ واثناء حصار دمشق ببضعة حجج تثبت هذه الفكرة كما فعل العلامة دى غويي . إعلم ان خالداً هو الذي وقع المعاهدة التي تلت فتح دمشق عام ١٤ ، وليس ذلك فقط بل هو الذي صادق عليها واثبتها في شهر ربيع الثاني عام ١٥ عند ما طلب منه الاسقف ذلك يوم خروجه الى اليرموك ، وقد كان ابو عبيدة احد الشهود فقط على تلك المعاهدة (١٢٤) وهذا صحيح حسب قول البلاذري وهو ما يجعلنا نوافق دى غويي على رأيه . وقد اورد ابو عبيد القاسم بن سلام رواية في غريب الحديث عن الاعمش وابي وائل وعذرا بن قيس ذكر فيها خطبة القاها خالد بن الوليد عام ١٥ يقول فيها « ان عمر استعملني على الشام وهو له مهم فلما القي الشام بوانيه وصار بثنية وعسلا عزلني واستعمل غيري » (١٢٥)

---

(١٢٣) مذكرة دى غويي ٦٧

(١٢٤) البلاذري ١٢٣ ، انظر ايضاً باقي هذا البحث

(١٢٥) ملحق مذكرة دى غويي ص ١٧٢ . تفسير العبارة : البواني هي اضلاع الزور « والزور فوق الصدر » ، دعيت كذا لتضامها مفردة بانية ، و يقال القي البعير بوانيه كما يقال التى كلكله اذا استناخ ، واستعاره هنا لاطمئنان الشام واستقرار اموره . والبثنية هي اما حنطة منسوبة الى بلاد الشام يقال لها البثنية او هي الارض اللينة لان الرمليه اللينه يقال لها بثنيه . واراد خالد ان الشام لما اطمأن وهدأ وذهبت شوكته

ولذلك بالنظر الى هذه الرواية والى كتابات يوتيشيوش تدعمها رواية البلاذري ، والى التشويش الحاصل في مؤلفات كثيرين من مؤرخي العرب حيث لا يفرقون بين حصار دمشق الاول والثاني ، لا ولا بين معركة اجنادين واليرموك التي وقعت عام ١٥ نؤمن بها كان خالد قائداً ، فاننا نؤمن ان القيادة كانت بيد خالد بعد رجب عام ١٣ واثناء الحصار ، وانه اذا كان قائداً قبل ذلك التاريخ فذلك بموجب تسمية باقي القواد له ، وليس بموجب تعيين رسمي اتاه من المدينة

٣

مواقع فحل ومرج الصفر والتغير في طبيعة الفتح الاسلامي

طرأ على الرأي العام تغير هام اثناء الستة شهور التي انقضت بعد موقعة اجنادين . فقد احس كل من خالد وعمرو ان الجيوش الاسلامية لا يمكنها ان تخطو خطوات بعيدة ، وهي على حالها من الغارات التي لا خطة لها ولا تدبير[١٢٦] ولذلك صار كل يفكر في احتلال منظم للبلاد السورية . وشعر عمر بن الخطاب بسداد هذه الفكرة فساعدها ، وكنت ترى في تلك الآونة عائلات كثيرة تؤم هذه البلاد بشكل قبائل لتجد اراض تسكنها ، وساد النظام مكان الفوضى

اما جيوش هرقل فانها انسحبت الى دمشق واستدعي تيودورس من

وسكنت الحروب وصار لينا لا مكروه فيه واصبح خصباً كالحنطة والعسل ، عزلني واستعمل غيري

(١٢٦) بكر ٣٤٢

القيادة وحل باهان محله[١٢٧] . يقول بعض علماء الافرنج[١٢٨] مستندين الى اصل قديم ان اهل حمص وقعوا معاهدة مع العرب الذين تعقبوا البيزنطيين بعد اجنادين وقد كان ذلك في شهر ذي القعدة عام ١٣ (كانون الثاني ٦٣٥)

وجرب البيزنطيون ان يتخذوا ما وراء مستنقعات بيسان مركزاً لهم ولكنهم عبروا الاردن عند ما هوجموا وجابهوا العدو في فحل[١٢٩] وهو مكان منيع وله اهمية جغرافية ، يقع الى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية حيث يلتقي عابر الاردن والذاهب الى دمشق فانكسروا هناك

وكان ذلك في ٢٨ ذي القعدة عام ١٣ (كانون الثاني ٦٣٥)[١٣٠] .

وقد سلمت المدينة نفسها واخذ المسلمون بيسان . واتجه البيزنطيون الان نحو دمشق . ولما وجدوا انفسهم غير قادرين على حفظ كيانهم في مرج الصفر ، وذلك في اول المحرم عام ١٤ (٢٥ شباط ٦٣٥)[١٣١] انهزموا الى دمشق واغلقوا ابوابها ، وظهر المسلمون قرب حصون مدينتهم بعد اسبوعين

---

(١٢٧) ربما كان القائد ارمنيا اسمه فاهان

(١٢٨) مذكرة دى غويي ٧٤ ، بكر ٣٤١

(١٢٩) ويجوز فَحل بفتح الفاء مذكرة دى غويي ٧٢

(١٣٠) البلاذري ١١٥ : ابن اسحق في الطبري ٢١٤٦ مذكرة دي غويي ٧٢

(١٣١) البلاذرى ١١٨ : اليعقوبي ١٥٨ يضعها رأساً بعد اجنادين وقبل موت ابي بكر وربما يشير البلاذري الى اليعقوبي بقوله ، « ويقال ان موقعة المرج كانت بعد اجنادين بعشرين يوماً ، وبعدها دمشق ثم فحل » مذكرة دى غويي ٨٠ ، بكر ٣٤٢ : لامنس ٥٥ : هارتمن في دائرة المعارف الاسلامية ٩٠٣ يوافق على رأى البلاذري

ويضع ابو مخنف[١٣٢] وسيف بن عمرو[١٣٣] موقعة فحل بعد سقوط دمشق بدل اليرموك التي اخطأوا في وضعها قبل الحصار . ويذكر سيف حوادث في فحل لا تنطبق الا على اليرموك . ويتبين من هذا انه لم يكن يفرق بينها و بين معركة اليرموك التي وقعت عام ١٥ هجرية

(١٣٢) مذكرة دي غويبي ٨٣

(١٣٣) سيف في الطبري ٢١٥٦

المقالة الثانية

وصف دمشق ابان الفتح الاسلامي

الفصل الاول

اهمية المكان

اعلم ان دمشق مدينة قديمة أُسست قبل عصر ابراهيم الخليل ، وهي تمتاز على غيرها من المدن السورية بدوامها عاصمة بر الشام رغم تقلبات العروش والامم وتغيراتها[١] اما موقعها فانه في نقطة يلتقي بها الطريق الذي يخترق سوريه الداخلية من الشمال الى الجنوب بنهر بردى الذي يجري من الشرق الى الغرب فينتج عن ذلك ترتيب نظامي للشوارع[٢] وتحيط الجبال بدمشق من كل جهاتها الا جهة واحدة وهي جهة البادية[٣] وموقع المدينة ذو شأن كبير ، فهي نقطة مهمة لتداول الامم مع بعضها وقد كانت مستودعاً للتجارة بين الشرق والغرب من عصر الى عصر ؛ وهي ابداً غنية و كثيرة السكان[٤] وهي قريبة من

(١) ميور : سنوات الخلافة الاولى ص ١٤٥

(٢) هرتمن : مقالة عن دمشق في دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٩٠٣

(٣) مرجليوث : « القاهرة واورشليم ودمشق » ص ٣٦٧

(٤) ميور : ١٥٥

اطراف لبنان الشرقي ، وفي وسط سهل خصب يمتد اميالا عديدة حولها . وهي تمتاز بمياهها الكثيرة وتنحدر تدريجياً من سفح جبل قاسيون نحو هضبة البادية السورية الكبرى(٥)

ويقوم جمال المدينة على التباين الزائد بين بناياتها الكثيرة ومياهها الغزيرة و بين الامكنة القاحلة الواقعة بينها و بين الجهات الاخرى التي يرتادها المسافر او يأتي منها(٦) و يسقي الغوطة وهي السهل الخصب الذي تقع فيه دمشق ، نهر بردى وانهار اخرى عديدة تجري من لبنان وما حوله من سلاسل الجبال . وقد اكسبتها المروج الجميلة والاحراج الغنية التي تكتنفها اسماً يذكر في كثير من المؤلفات وهو «جنة الارض(٧)» وقد يخيل للناظر الى المدينة من جبل قاسيون ان مآذنها وحصون قلعتها تصعد من بستان اخضر(٨) . وقد ادخلت مياه بردى النقية الى المدينة ، والفضل راجع الى قسطل قديم مبني على اروقة كبيرة من البنيان المرصوص(٩)

---

(٥) فون كريمر « الشرق تحت حكم الخلفاء » ص ١٢٤

(٦) مرجليوث ٣٢٦

(٧) ميور ١٤٥

(٨) مرجليوث ٣٦٧

(٩) فون كريمر ١٣٨

الفصل الثاني

الاسوار والحصون

لم تكن دمشق كبيرة ابان الفتح العربي ومتسعة بقدر ما هي عليه الان ، ويمكن تقدير مساحتها بنظرة الى الاسوار التي لا تزال آثارها صامتة حتى الان . فقد كانت تضم هذه الاسوار مربعاً مستطيلا من الشرق الى الغرب ، وزاوية هذا المربع الغربية الشمالية مجزّءة نوعاً ، لانه يرجح ان في نفس البقعة التي تشغلها القلعة الان كان يوجد حصناً اكبر بكثير . وكان علو الاسوار عشرون قدماً وسمكها خمسة عشر وهي ترينا في بعض انحائها حجارة ضخمة جداً تكاد تكون من عمل الجن . وقد بنيت تلك الاسوار بالحجارة المربعة وهي مبنية في بعض الاحيان على اساس اقدم منها بكثير يرجع الى ما قبل العصر اليوناني وهذا ما يمكن التوصل الى معرفته بملاحظة قوة محيط الحجارة وهيئتها و كيفية بنائها معاً بدون الاستعانة بالطين(١٠)

وقد اصاب دمشق خسارات كبيرة من جراء الحرب مع الفرس ولكنها كانت قد استعادت شهرتها وتجاهها عند ما قصدها العرب(١١) ولا يغرب عن فكرنا ما ادخله عليها الامبراطور ديوكلشيان قبيل ذلك من الاصلاحات في الحصون رامياً بذلك الى جعلها حصناً رومانياً للحدود الامبراطورية الشرقية(١٢)

---

(١٠) فون كريمر ١٤١

(١١) ميور ١٤٥

(١٢) فون كريمر ١٢٨

ولم ينقص الاسوار ما يدرأ عنها هجمات العدو فحسب . فقد كانت الشرفات تتوالى على الاسوار عَلَى بعد خمسين خطوة وكان يكللها مسلات . وكان يسكن تلك الشرفات والابراج الرامون بالسهام والمقاليع ليمنعوا الاعداء من تسلق الاسوار

وكان يحيط بالسور خندق مملوء بمياه بردى يتراوح عرضه بين العشرة اقدام والخمسة عشر ، وذلك ليجعل هجمات العدو اصعب فاصعب(١٣) وقد كان فوق ابواب المدينة وفي نقط اخرى من السور ، بعض ابنية صغيرة وبيوت للسكن لكي يأوي اليها من كان يترتب عليه حراسة المدينة واسوارها(١٤)

الفصل الثالث

ابواب دمشق وشوارعها

تقول احدى الروايات الاسلامية انه لما افتتح العرب دمشق كان يوجد سبعة ابواب اسماؤها اخذت من اسماء السيارات السبع كما اخذت اسماء ايام الاسبوع ،وان تلك الابواب كانت محاطة بصور تشير الى السيارات هذه . ويرجح الاستاذ مرجليوث ان المسلمين يقولون بوجود ذلك قبل عهد المسيحية لانه اذا كانت هذه الرواية عَلَى شيء من الصحة فان الاسماء يجب ان تكون قد تغيرت ، وذلك لان الاسماء الحديثة يمكن ارجاعها الى العصر الاول من الفتح الاسلامي الا قليل من الشواذ(١٥)

(١٣) فون كريمر ١٤١
(١٤) ميور ١٤٥
(١٥) مرجليوث ٣٧٢

وعلى كل فاننا نعلم ان عدداً من المداخل كانت تستعمل للمواصلات بين المدينة وما دونها ، وان تلك المداخل كانت تنتهي بابواب ثقيلة مصفحة بالحديد ومزدوجة الانطواء لكي تصد غارات الاعداء من الخارج،وان محلات كانت مبعثرة فيها . وكانت تدعي البوابة الكبرى في الجهة الشرقية من دمشق ، بالباب الشرقي

وكان هنالك هيكل روماني كبير امام ذلك الباب ، وبقي باب الهيكل حتى سنة ٦٠٢ للهجرة . وقد طمست آثار الهيكل كلها ولكن الباب الشرقي بقي بدون تغييرات كثيرة . ويحتوي الباب الشرقي عَلَى بوابة كبيرة — وهي مسدودة الان — في وسطه ، وهي من البناء الروماني المتين ، احجارها رملية مصقولة ومائلة الى الاحمرار وهي ذات قوس مستدير . ويحيط بهذه البوابة الرئيسية المتوسطة بوابتان صغيرتان لهما اقواس . وقد كانت تستعمل البوابة الكبيرة الوسطى للابل والفرسان والدواب واما البوابتان اللتان كانتا عَلَى الجوانب فان واحدة كان يمر بها الداخلون الى المدينة ويمر بالاخرى الخارجون منها(١٦)

وكان هنالك عدد كبير من هذه الابواب ابان الفتح العربي . فقد كانت البوابة التي في الجانب الشمالي من المدينة والتي تدعى الان باب الفراديس مبنية كلها بالحجارة وليست ذات قنطرة وانما مغطاة بحجارة مستطيلة وهذا النوع من البناء يرجع الى ابعد العصور القديمة(١٧) وقد يشير اسم هذه البوابة الى محل بالقرب منها بذات الاسم (Paradisius) وهو خرب

(١٦) فون كريمر ١٤٢ . ميور ١٤٦
(١٧) ميور ١٤٣

الان[١٨] وربما اطلق عليها العرب هذا الاسم . والفراديس كما لا يخفى على القارىء اسم عربي بمعنى جنائن وجنات . ويقول فون كريمر ان الحريق جعلها سوداء وانها كانت تدعى ايضاً باب الكراديس من تكوم الجثث قربها[١٩] . وفي الشمال الشرقي من المدينة باب يقال له باب توما[٢٠] والاسم يشير الى توما صهر الملك هرقل الذي كان يحكم المدينة آنئذ حسب قول بعضهم والذي دافع عن دمشق من تلك الجهة من المدينة وقت الحصار كما سياتي عما قريب ، وربما اطلق العرب عليها هذا الاسم بعدئذ

واما في القسم الغربي من السور فانه كانت توجد بوابة في المحل الذي يدعوه الان باب الجابية ، ولم تبق هـذه البوابة بهيئتها الاصلية الى الوقت الحاضر . وفي الجنوب مدخلان يدعى احدهما باب كيسان والاخر باب الصغير وهذا يستعمل كما كان سابقاً وهو مبني بحجارة مقطوعة قطعاً جميلا تشبه حجارة الباب الشرقي وله قناطر عريضة وهو مغطى بالطنوف المنقوشة (افريز) المشهورة بدقتها وجمال صنعها[٢١]

بهذا المنظر الخارجي ظهرت دمشق للفاتحين العرب الذين اجتمعوا حول اسوارها . واما داخل المدينة فقد كان ملائماً لمظهرها الخارجي[٢٢] وقد كان الدرب المستقيم اهم شارع في دمشق وكان يوصل غربي دمشق بشرقيها لانه

(١٨) مذكرة دى غويبي ٩٣
(١٩) مذكرة دي غويبي ٩٣
(٢٠) هارتمن ٩٠٣
(٢١) فون كريمر ١٤٣
(٢٢) مثله فون كريمر ١٤٣

يمتد من الباب الشرقي لمسافة ربع ميل الى الباب الغربي او باب الجابية . اما عرضه فخمسة عشر قدماً وهو الشارع الذي مر به بولس الرسول والذي توجد اشارة اليه في اعمال الرسل[٢٣]

الفصل الرابع

كاتدرائية القديس يوحنا والكنائس الاخرى

لقد كان يوجد في دمشق وضواحيها خمسة عشرة كنيسة ما عدا كنيسة يوحنا المعمدان ابان الفتح[٢٤] واما الكاتدرائية فانها كانت اهمها بدون منازع . يقول فون كريمر[٢٥] انها تقع في منتصف الطريق بين البابين الغربي والشرقي وانها سميت باسم القديس يوحنا المعمدان . وهي واقعة في مكان هيكل وثني قديم وقد بنيت حيطانها على اساساته القوية . اما بانيها فهو تيودوسيوس الامبراطور الروماني وهو الذي اطلق عليها ذلك الاسم في عام ٣٩٩ للميلاد . وقد كانت اقواس الابواب الفخمة المرتكزة على اعمدة كورنثية والواجهات المزخرفة بنقوش من اواخر عصر الاحياء الروماني تزين مدخل الكنيسة ولنا من آثار هذه الابواب القديمة التي تذكرنا ببعلبك في فخامتها واسلوبها انموذج محفوظ في الجانب الغربي من الجامع الحالي امام باب البريد . وقد كان في الجنوب باب مؤلف من اجزاء ثلاثة ولكنه اصغر من الباب الغربي ولم

(٢٣) مرجليوث ٣٧٧
(٢٤) ميور ١٤٥
(٢٥) فون كريمر ١٤٤

يكن جزءاً من الهيكل الوثني وانما بني خصيصاً كقسم من الكنيسة البيزنطية المسيحية

اما داخل الكنيسة فانه غاية في الجمال . وصحن الكنيسة من عمل البيزنطيين وهو مكلل بقبة كبرى يدعوها العرب قبة النسر . والحيطان مرصعة من الداخل من كلا الجانبين بالفسيفساء الجميلة التي تماثل بذلك كنيسة القديس مارك في البندقية . ومساحة هذا البناء كله من الداخل ٤٣١ قدماً في ١٢٥ وتمتد على الجانب الجنوبي من مربع مستطيل مساحته ١٦٣ يرداً في ١٠٨ [٢٦]

لقد كانت هذه الكاتدرائية مركز حامية قوية . وكان كثيرون من وجهاء البيزنطيين يسكنون الكنائس الاخرى التي كان عددها ثلاث عشرة حسب قول فون كريمر . فاذا صدقنا عبارة ميور السابقة فيكون عدد الكنائس في جوار دمشق اثنتان

وقد تفرعت حول الكاتدرائية ازقة وشوارع مختلفة في جميع الجهات للمارة حيث كانت تحفظ الاروقة المعمدة المارة من الحر في الصيف ومن المطر في الشتاء [٢٧]

---

(٢٦) مقالة مكوليستر عن دمشق في دائرة المعارف البريطانية المجلد السابع

(٢٧) سنأتي على ذكر ما حل بهذه الكنيسة عند ما نتكلم عن دخول العرب الى دمشق

المقالة الثالثة

سقوط دمشق في ايدي العرب

اما وقد اتينا على ذكر الحوادث التي سبقت فتح دمشق بالاختصار ، الامر الذي لا غنى عنه في رسالة كهذه ، ووصفنا دمشق ابان الفتح فاننا سوف نعطي فيما يلي حديثاً مطولاً وابحاثاً مستفيضة عن حصار دمشق وكيفية سقوطها في ايدي العرب مع التفاصيل الاخرى التي نجدها ضرورية وذات اهمية

الفصل الاول

نزول قواد المسلمين عند اسوار دمشق

لما انكسر البيزنطيون في موقعة مرج الصفر بقيت جيوش العرب مدة اسبوعين في ساحة الوغي وظهرت بعد ذلك امام اسوار دمشق وذلك في ١٦ محرم سنة ١٤ (١٣ شباط عام ٦٣٥) . ولما شاهد اهل دمشق ذلك انسحبوا الى حصونهم واغلقوا ابواب مدينتهم . اما الغوطة وكنائسها فان المسلمين اخذوها عنوة . ثم توجه كل قائد مع فرقته واتخذ له مركزاً قرب احد ابواب المدينة [١] .

---

(١) البلاذري ، ١٢٠ .

يقول العلامة بكرّ ان العرب لم يكن في وسعهم محاصرة مدينة مثل دمشق لانهم كانوا يجهلون فن حصار المدن ولم يكونوا على استعداد لاجراء ذلك[٢]. وعلى كل فاننا نعلم ان الدهشة والاعجاب ملآ ادمغة العرب عندما شاهدوا خنادق بسيطة تحفر حول المدينة لحمايتها ضد اهالي مكه[٣]. وان سلمان الفارسي الذي تولى اعمال الدفاع اكتسب شهرة كبيرة لامره بحفر تلك الخنادق وهذا ما يساعد على تايد كلام بكرّ . ويقول لامنس[٤] ان ما فعله العرب انما كان محاصرة بسيطة لانه كان ينقصهم كل شيء حتى السلالم لتسلق الاسوار . ولنرى الان المراكز التي اتخذها المسلمون قرب اسوار دمشق

نزل ابو عبيدة عامر بن الجراح عند الباب الغربي المسمى بباب الجابية وجعل مركزه قربه . اما خالد بن الوليد فانه نزل عند الباب الشرقي ودعي دير صليبا الذي نزل بقربه دير خالد[٥] . عَلَى ان دي غويي[٦] يقول ان جناح خالد الايسر فقط كان عند الباب الشرقي وان مركز اعماله كان بينه وبين باب توما . وهو يعتمد في ذلك على الرحالة بورتر Porter مؤلف كتاب « خمس سنوات في دمشق » الذي وجد كتابة اثرية تثبت ذلك . ولكننا لا نعلم نصيب بورتر المذكور من التدقيق في الملاحظة والاخلاص في الرواية وزيادة على ذلك فان دي غويي يستشهد بفلتز شتاين Welzstein وابي شداد

---

(٢) بكرّ ، ٣٤٢

(٣) في عام ١٥ و٦٢٧ الف زعماء قريش في مكة محالفه ضد مسلمي المدينة واخبرت قبيلة خزاعة محمد بذلك ولذلك اتخذت التدابير اللازمة لحماية المدينة

(٤) تاريخ سوريه ج ١ ص ٥٥

(٥) البلاذري ١٢١ ، ميور ١٤٦

(٦) المذكرة ٩٣

بقوله ان دير خالد كان قريباً من باب الفراديس ويبعد نصف مرحلة عنه ولكننا لسنا بقابلين هذا الرأي الا اذا جعلنا مركز اعمال خالد في الشمال الشرقي من السور وذلك لا يتفق مع معظم مراجعنا ونزل عمرو بن العاص، ويقال انه دعي من فلسطين بعد ابتداء الحصار،[٧] قرب باب توما في شمال شرقي المدينة . ونزل شرحبيل كاتب وحي رسول الله (صلعم) عند باب الفراديس واما يزيد بن ابي سفيان فانه كان محتلاً الاراضي الواقعة ما بين الباب الصغير وباب كيسان في الجنوب

ولكي يأمن المسلمون شر الهجمات من جهة الشمال فانهم ارسلوا ابا الدرداء عامر بن عويمر الخزرجي على مسلحة ببرزه وهي نقطة في طريق بعلبك[٨] . وبعثوا ذا الكلاع الحميري حتى كان ردءاً للمسلمين بين دمشق وحمص وبعثوا علقمة بن حكيم ومسروق العبسي فكانا ردءاً بين دمشق وفلسطين[٩]

وقد تختلف روايات بعض المصادر عن هذه التي اوردناها نوعاً . فيقول الواقدي[١٠] ان شرحبيل وليس عمرو نزل عند باب توما وان ضرار بن الازور كان يتجول مع فرقة من باب الى آخر لينجد من كان بحاجة اليه من المسلمين وهنالك حديث اورده البلاذري[١١] ومؤداه ان خالداً نزل عند باب الجابيه

---

(٧) ربما كان مكانه قرب باب توما في الحصار الثاني ، ولكننا نجده في دمشق في ربيع الثاني عام ١٥ كشاهد على تجديد المعاهدة

(٨) البلاذري ١٢١

(٩) سيف في الطبري ٢١٥١

(١٠) فتوح الشام ٦٢

(١١) البلاذري ١٢٢

وابا عبيدة عند الباب الشرقي على ان الامام البلاذري يسمي هذا خطأً · وينكر البرنس كيتاني[١٢] وجود ابي عبيدة في سورية آنئذ وفي ذلك يخالف اكثر مراجعنا وليس بامكاننا موافقته على رأيه الغريب هذا

الفصل الثاني

الاحوال العمومية اثناء الحصار

اننا لا نعلم بالضبط من كان حاكم دمشق عندما حاصرها المسلمون فالاراء تختلف · يقول محمد بن اسحق[١٣] ان اسمه كان باهان · واما سيف بن عمرو والذين تبعوه[١٤] فيقولون نسطاس · والواقدي[١٥] يدعوه توما صهر[١٦] الملك هرقل ويسمي رجلا آخر اسمه هربيس ربما كان مساعده في الحكم · ويتكلم يوتيشيوس وابن خلدون[١٧] عن منصور بن سرجون كحاكم للمدينة · ويذكر

(١٢) تاريخ القرون الوسطى ٣٤٤ · هرتمن في دائرة المعارف الاسلامية ٩٠٤

(١٣) الطبري ٢١٤٦

(١٤) الطبري ٢١٥١ · دحلان ٢٧ يقول قسطاس · ابن الاثير ١٦٣ يقول انسطاس · ميور ١٤٦

(١٥) الواقدي ٤٦ ، وفي مكان آخر من نفس الكتاب يذكر ان الحاكم كان عزازير ويتكلم عن بطريق اسمه بولس الذي لحق بالمسلمين مع اخيه بطرس عندما ذهبوا الى اجنادين واختطف جماعة من الحريم فخار بن باعمدة الخيام ص ٤٣—٤٨ ·

(١٦) يقول رجبن ج٥ ص ٣٢١ ان الكبرياء فقط جعلت العرب يدعوه صهر هرقل ولكنه لم يكن الا نبيل بيزنطي

(١٧) الجزء الثاني ص ٢٢٦

البلاذري[١٨] اسقفاً بدون ان يعطي اسمه · اما ابن سرجون فيقول فيه لامنس[١٩] انه كان من اوجه وجهاء دمشق ومدير الشؤون المالية في عهد البيزنطيين ويذكر معه اسقفاً ولكنه لا يذكر اسمه · ويأتي العلامة دي غويبي بعبارة تختص بحاكم دمشق تساعد على فهم سر سقوط الشام في ايدي العرب اذا كانت صحيحة · فهو يقول ان منصور بن سرجون لم يكن عَلَى اتفاق تام مع هرقل لان هذا اجبره على دفع مئة الف دينار لكي يبقى في منصة الحكم · وهكذا لما قدم جيش البيزنطيين تحت قيادة باهان ليحارب المسلمين حول دمشق فان منصور لم يعطه المؤن والذخائر اللازمة لانه كان يتأمل ان يتخلص من ذلك الجيش ويسلم المدينة الى المسلمين · ولم يوفق باهان الى منع وقوع الحصار وابتدأ تيودوسيوس سكلاريوس يحشد جيشاً كبيراً للمعركة النهائية · قد تكون هذه الحقائق المتعلقة بحاكم المدينة صحيحة اذا نظرنا الى عدم رضى الاهلين وخصوصاً الوطنيين عن حكم البيزنطيين واذا عرفنا ان ابن سرجون كان من الوطنيين

ولنوجه انظارنا الان الى احوال سكان دمشق في تلك الازمة · يقول السر ميور[٢٠] ان اهل دمشق نظروا الى فتوح العرب كغزوات مفاجئة ككثير غيرها وانهم جهلوا الحمية والحماس والمثابرة التي اثارها دين محمد في قلوب تلك البوادي · ويقول سيديو Sédillot الافرنسي ان هرقل نفسه

(١٨) البلاذري ١٢١

(١٩) سوريه ٥٦، مذكرة دي غويبي ٨٨—٨٩

(٢٠) سنوات الخلافة الاولى ١٤٦

— الذي كان على الارجح في انطاكيه آنئذ[٢١] — لم يكن ليفهم الخطر الذي يهدده و يحيط بملكه فقد كان ينظر الى العرب كقوم جهلة فقراء يشعر الناظر الى جيشهم انه لا يرى جيشاً منظماً بل فرقا من الرجال مجتمعة بطريقة غير انتظامية فرسانهم في وسط مشاتهم والبسة جنودهم اطمار بالية هذا اذا لم تكن الجنود نصف عراة و كان كل واحد مسلحا حسب ما يرغب هو بسهم وقوس او برمح · ولذلك فقد اعتقد الامبراطور ان هذا الحصار لا يكون الا غزوة موقتة[٢٢]

انه ليس بوسعنا ان ننكر ان هيئة العرب الخارجية كانت حقا كما وصفها سيديو و كما شعر بها هرقل وسكان دمشق وانه لم يكن لديهم ما يمكن مقابلته مع لمعان اسلحة البيزنطيين وانتظام صفوفهم وحسن البستهم و كثرة عددهم · عَلى ان العرب كان عندهم ما يفضل عَلَى هذه المظاهر الخارجية · فقد كانوا شجعان واصحاب عزم وثبات في محاربتهم وقد كانوا يحاربون لاجل دعوة كبرى وقد كانوا يتأملون في حالة عدم فوزهم بربح عاجل في هذه الحياة الدنيا بمكافأة كبرى في الحياة الاخرة كما وعدهم قرآنهم الكريم[٢٣] · وعلى كل فلا يجب ان نبالغ في فكرة عدم اهتمام هرقل بامر العرب كما يريدنا السير ميور ان نفعل ·

(٢١) يقول سيف في الطبري ٢١٥١ انه كان قرب حمص ولكن الواقدي ٧٧ يقول في انطاكيه و يروي البلاذري انه هرب الى انطاكيه منذ موقعة اجنادين ص١١٤

(٢٢) تاريخ العرب لسيديو ص ١٠٦

(٢٣) راجع الآيات الاولى من سورة محمد في القرآن الكريم

وطلب اهل دمشق المعونة من الامبراطور فاتت خيول هرقل مغيثة لهم ولكن الخيول التي مع ذي الكلاع الحميري اشجتها واشغلتها عن الناس و كان هذا مقيم بين المسلمين و بين حمص على راس ليلة من دمشق كانه يريد حمص فلما كان ذلك ارزت خيول هرقل ونزلت بازاء ذي الكلاع[٢٤] · واتى الصيف واهل دمشق على حالهم فلما ايقنوا ان الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا و يئسوا وقد كانوا يرون محاصرة العرب كالغارات قبل ذلك وكانوا واثقين انه اذا هجم البرد قفل العرب راجعين الى صحرائهم ولكن الشتاء كادت تنقضي والعرب مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا عَلَى دخول دمشق ولما شعر المسلمون بذلك ازدادوا طمعاً فيهم عَلَى ان جهودهم لخرق الاسوار لم تنجح لان حصون المدينة كانت قوية

و يظهر ان ميور يعترف باستعداد العرب لمحاصرة المدينة ودخولها عنوة لانه يذكر محاصرة دمشق بالزحوف والترامي والمجانيق التي نصبت على الاسوار و يذكر جهود العرب لخرق الاسوار وهذا ما اخذه عن رواية سيف بن عمرو ولكنه لا ينطبق على ما وصفناه من حالة العرب قبل ان يكون لفتوحهم خططاً وطرقاً معروفة · وقد يمكن ان يكون العرب قد حصلوا على عُدد بسيطة للحصار ومعرفة ضئيلة في هذا الفن ولكن لا يجب تصديق رواية سيف كما هي كما سيتبين لك فيما يلي

و يتحدث دي غويي و بكر عن هجمات البيزنطيين ضد العرب اثناء الحصار · فيقول الاول ان المسلمين أُجبروا ان يجابهوا فرقاً من جيوش بيزنطه

(٢٤) سيف في الطبري ٢١٥٢ · دجلان ٢٧ · ميور ١٤٦

خارج المدينة . ويذكر الاخر ان جيوش هرقل جاهدت لكي تمنع العرب من فتح دمشق وانها كسرت جيوش العرب في احد جهودها ولكن بلا جدوى[٢٥] على ان المصادر العربية لا تأتي علَى ذكر ذلك وقد تكون مصادر عربية اخرى لم اوفق الى مطالعتها قد ذكرتها

الفصل الثالث

العرب المسلمون يدخلون دمشق

١

آراء قديمة وحديثة بشأن دخول المدينة

يقول بعض المستشرقين[٢٦] ان التفاصيل الصحيحة المتعلقة بفتح دمشق تنقصنا وان احاديث مؤرخي العرب ورواياتهم ملأى بالاغلاط وذلك راجع الى سببين اولهما اعتقاد البعض بان ابا عبيدة كان قائد الجيوش وقد برهنا عدم صحة هذا وثانيهما الرأي السائد بين عموم طبقات مؤرخينا وهو ان المدينة فتحت عنوة وصلحاً . على اننا اذا بحثنا ودققنا نجد ان رواة الاحاديث هم السبب الاصلي والاولي لهذه الاغلاط وان مؤرخي العرب قد ساعدوهم في اغلاطهم بان قبلوا احاديثهم ورواياتهم بدون جرح او تعديل وبدون نقد او ابداء رأي فقد وجد اولئك الرواة والمؤرخون صعوبة كلية في قول الحقيقة عن تاريخ

(٢٥) المذكرة لدي غويي ٨٢ ، بكر ٢.٣٤٢

(٢٦) انظر المذكره ص ٩٥

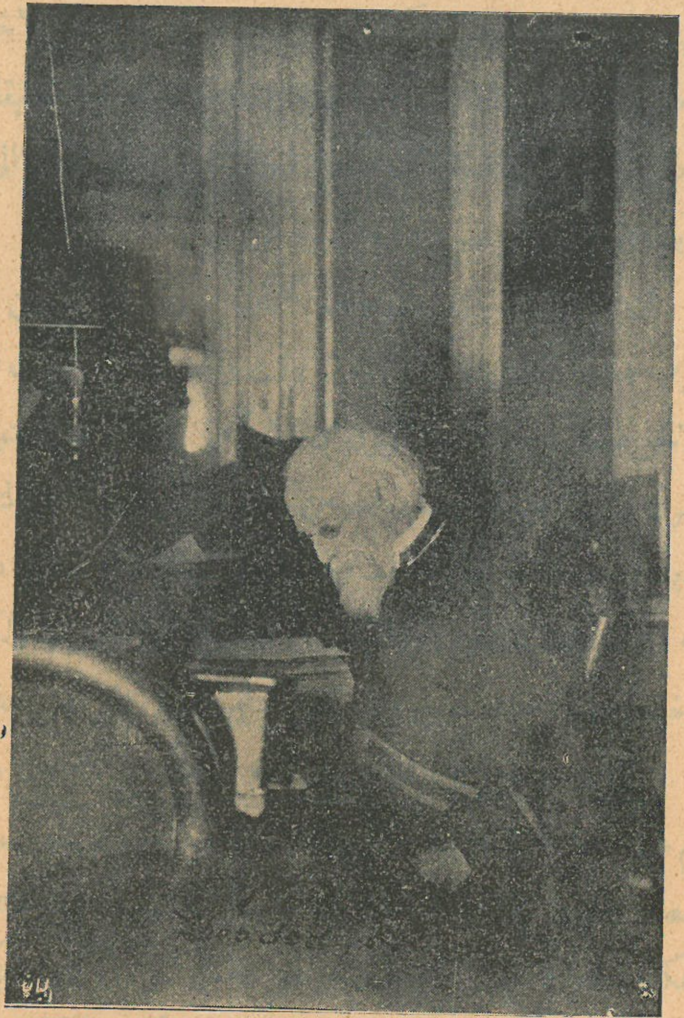

THEODOR NOLDEKE

المستشرق الالماني الكبير تيودور نولدكه ١٨٣٨—١٩٣١

استاذ المشرقيات في جامعة ستراسبورغ سابقاً

وقد تفضل باهدائنا رسمه في صيف ٩٢٩

قومهم كما يجد تلك الصعوبة كثيرون من رواة ومؤرخي الامم الاخرى فحملتهم عواطفهم على ذكر ما لم يقع . ولا ندري اذا كانوا عرفوا الحقيقة فشوهوها او اذا كانوا لم يعرفوا الحقيقة فوصلتنا ناقصة وتعيين ذلك يحتاج الى دراسات طويلة خارجة عن موضوع هذه الرسالة الرئيسي

ان الاعتقاد الشائع عند معظم كتاب الشرق ان لم يكن كلهم هو ان العرب دخلوا دمشق من بابين في وقت واحد فدخلوا الباب الواحد عنوة والاخر صلحاً . ومعظمهم يقولون ان خالداً هو الذي دخلها عنوة من الباب الشرقي وان ابا عبيدة دخلها صلحاً من باب الجابية وان الاثنين التقيا في وسط المدينة و بعد المجادلة الطويلة اجروها كلها مجرى الصلح وتفصيل ذلك سيرد في بابه . وقد تختلف بعض الروايات عن الاخرى في تفاصيلها ولكن الاعتقاد بدخولها عنوة وصلحاً موجود في كل كتاب عربي ظهر حتى هذا التاريخ

وقد درس عدد من المستشرقين هذه النقطة ، و كثيرون منهم لا رائد لهم غير حب الحقيقة ، فاقر راي بعضهم ان العرب ، وهم ينقصهم معرفة فنون الحصار والعدد اللازمة له ، جلسوا امام اسوار دمشق وحاصروها محاصرة بسيطة وهكذا فصلوا دمشق عما يجاورها ومنعوا دخول المؤن وكل ما يمكن ان يعزز مركزها اليها . و يقول في ذلك العلامة الكبير نولدكه ان حامية دمشق تركتها قبل ان تسقط . اما سكان المدينة فان طول مدة الحصار وثبات العرب انهكاهم وخافوا ان تنفذ مؤنهم في المستقبل . ولما تركوا وحدهم بعد ان ذهبت الحامية قرروا ان يسلموا خصوصاً بعد ان فشلت جيوش الامبراطور في اغاثتهم . و يقول بكر أن تسليم دمشق للعرب حدث بخيانة السلطة المدنية وساعدها على ذلك الاسقف وجابي الضرائب و يعترف دي غويي ايضاً بان الخيانة سببت

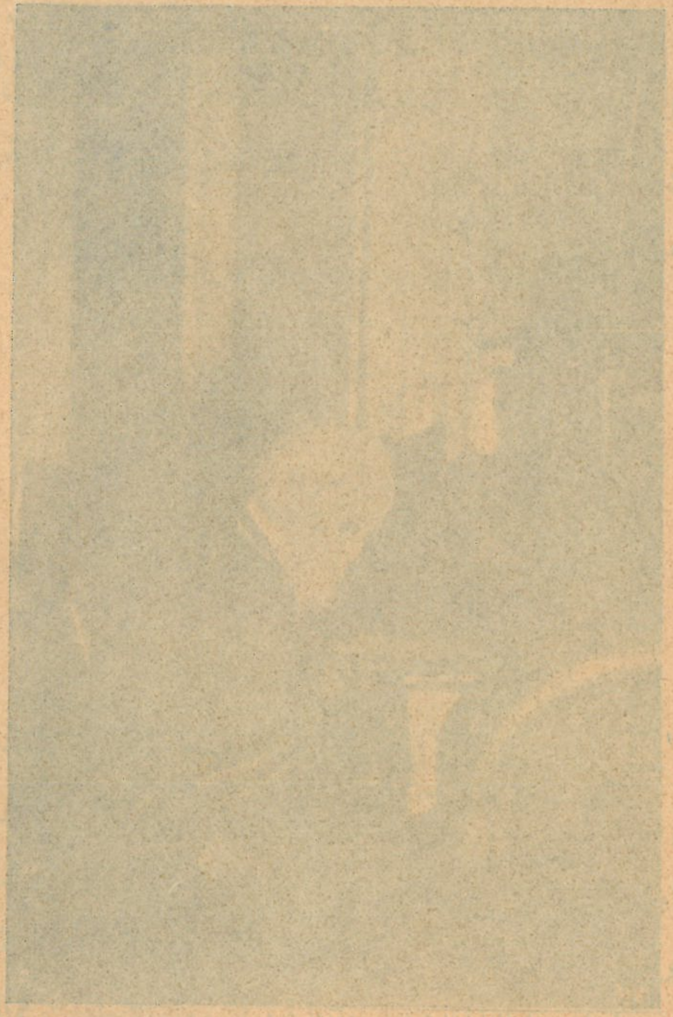

التسليم . اما لامنس اليسوعي فانه لا يذكر الخيانة ولكنه يقول ان اهالي دمشق حصلوا عَلَى شروط سلمية شريفة من العرب الذين اتعبتهم طول مدة الحصار وان الذي خابر العرب بشأن المعاهدة انما كان الاسقف وساعده منصور بن سرجون في ذلك(٢٧)

قد يكون كتاب الافرنج قد بالغوا في فكرة عدم استعداد العرب وقلة معرفتهم بامور الحصار ولكن لا يجب ان نوافقهم على ذلك وانما الذي يمكننا موافقتهم عليه هو فكرة التسليم والخيانة القوية التي لم يخترعوها بل وجدوها في تلك الروايات العربية نفسها كما سنرى . ولننظر الان في اهم مرويات العرب عن دخول المدينة حافظين هذه الافكار في مخيلتنا ولنفتش عن مواطن الضعف في كل من هذه المرويات

٢

فتح دمشق وتسليمها حسب رواية سيف بن عمرو

يقول سيف بن عمرو ويتبعه في قوله غيره من الكتاب(٢٨) انه ولد للبطريق الذي عَلَى اهل دمشق مولود فصنع عليه فاكل القوم وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك احد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من امورهم شيء عيونه ذاكية وهو معنيٌّ بما يليه

(٢٧) راجع بكر ٣٤٢ . المذكرة ص ٩٠ و٨٢ . تاريخ سوريه للامنس ٥٦

(٢٨) انظر الطبري ٢١٥٢ . ابن الاثير ١٦٤ . دحلان ٢٦ . ميور ١٤٧ . منقريوس ٢١

فقد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم واوهاقاً(٢٩) فلما امسى من ذلك اليوم نهض ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وامثاله من اصحابه في اول يومه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهضوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو واصحابه والمتقدمون رموا بالحبال الشرف وعَلَى ظهورهم القُرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهم القعقاع ومذعور ثم لم يدعا احبولة الا اثبتاها والاوهاق بالشرف . وكان المكان الذي اقتحموا منه احصن مكان يحيط بدمشق واكثره ماءً واشده مدخلا . وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه احد الا رقي او دنا من الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة اصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وامرهم بالتكبير فكبر الذين عَلَى رأس السور . فنهض المسلمون الى الباب ومال الى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى اول من يليه فانامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع سائر الناس فاخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشان وتشاغل اهل كل ناحية بما يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه اغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فاقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أُنيم . ولما شد خالد عَلَى من يليه وبلغ منهم الذي اراد عنوةً ارز من افلت الى اهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فابوا وابعدوا فلم يفجأهم الا وهم يبوحون لهم بالصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من اهل ذلك الباب

(٢٩) قد يكون خالد قد حصل على هذه الادوات من سكان الدير المجاور قرب الباب الشرقي . انظر مرويات البلاذري فيما يلي

فدخل اهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوةً فالتقى خالد والقواد في وسطها[٣٠] هذا استعراضاً وانتهابا وهذا صلحاًوتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً

يزيد ميور[٣١] عَلَى هذه الرواية قوله انه لما تقدمت جيوش الجانب الغربي نحو نصف المدينة صمت آذان ابي عبيدة اصوات المستغيثين والمسترحمين لايقاف المذبحة التي اثارها دخول خالد ولما علم ابو عبيدة بما قد حصل في الباب الشرقي ارسل اوامره الى خالد بايقاف الذبح والنهب . فاجاب خالد انه اخذها عنوة وانه حر التصرف بها ولكنه عبثاً حاول ان يقنع ابا عبيدة الذي اشار الى المعاهدة وكان اعدل وارحم منه وامر ان تنفذ بنودها وهكذا صارت كلها صلحاً

والان اذا امعنا النظر في رواية سيف هذه نجد ان كثيراً من حوادثها مخالف لاحكام العقل . انه لا يستبعد ان يكون قد حصل عَلَى تلك السلالم والاوهاق من الدير الذي بقربه كما سنستنتج من رواية البلاذري ويمكن ان يكون قد حصل على معرفة اولية باستعمال تلك السلالم والاوهاق . ولكن عمل الحامية وباقي سكان الحي الشرقي واسراعهم الى ابي عبيدة ليعقدوا معه شروط الصلح بعد ان دخل خالد من الباب الشرقي هذا مما لا يُصدق ولا يقبله الذوق السليم لانه ليس هنالك وقت لعقد صلح مثل هذا وجيوش خالد تخترق المدينة من شرقيها الى غربيها بحيث لا يعتم ابو عبيدة الا ان يعرف بدخول خالد ولا يتمكن الهاربون من البيزنطيين من خديعته وتوقيع صلح

(٣٠) يقول يزيد بن مرشد في ابن عساكر ١٤٨ان التقاءهم في الزياتين

(٣١) ميور ١٤٨

معه . ويفسر السير ميور هذه الحالة بقوله ان حاكم المدينة بعد ان رأى مقاومة هجوم العرب من جميع النواحي ضرباً من المستحيل خرج من باب الجابية واظهر رغبته في عقد الصلح الى ابي عبيدة وهكذا وقعت المعاهدة والطرفان يجهلان ما وقع في شرقي المدينة . على اننا نحن بدورنا نقول ان هذه الصدفة — صدفة توقيع الصلح في الجانب الغربي والفتح عنوةً في الجانب الشرقي بنفس الوقت وبدون ان يعلم كل جانب ما جرى في الجانب الآخر — غريبة جداً لا يمكن تصديقها

و يعتقد سيف بن عمرو ان ابا عبيدة كان قائد الجيوش في ذلك الحين وهذا الذي جعل خالد يرضخ لما فعله ابو عبيدة ولو انه كان هو القائد لما رضي بذلك الصلح . وعلى كلٍّ فقد بينا خطأ فكرة امارة ابي عبيدة عند حصار دمشق فيما سبق ولا حاجة الى القول ثانية ان سيف كان مخطئاً في جعله ابي عبيدة اميراً في هذه الآونة وان خالد كان لا يزال امير الجيوش ولم يعزل بعد موت ابي بكر كما قال بعضهم

٣

رواية الواقدي عن فتح دمشق

قال الواقدي[٣٢] ما مؤداه : ولما رأى سكان دمشق ثبات قواد المسلمين في غايتهم التفوا حول حاكمهم توما صهر هرقل وطلبوا منه النجدة والا سلموا المدينة . فوعدهم توما بالمساعدة وفي احدى الهجمات التي امر بها عند بابه

(٣٢) انظر الوقدي ص٦٣ — ٧٣ . كتاب مرجليوث عن القاهرة والقدس ودمشق ص ٤١٢ — ٤٢٢ . جبن ص ٣٢٣

— باب توما — حيث كان شرحبيل بن حسنة نازلاً خسر الصليب الكبير
ورمته ام ابان بنت عتبة التي قتل زوجها بنبلة اصابت عينه . ولم يمكن اخراج
النبلة من عين توما فنُشر آخرها وظل الباقي في عينه فهاج وغضب وامر بهجوم
عمومي من جميع الابواب ليلاً ضد المسلمين بحيث لا يعرف احد منهم بذلك
فاوقف فرقة عند كل باب وامرها بالهجوم عند سماع الجرس الكبير يدق
عند باب توما فيفاجئون المسلمين و يهلكوهم . ودق الجرس ولكن تلك الهجمة
كانت بدون جدوى وخسر البيزنطيون كثيراً من عددهم (٣٣) وانسحب المسيحيون
الى داخل دمشق واغلقوا ابوابها

واقترب عدد من وجوه دمشق من توما بعد هذه الهجمة وطلبوا منه ان
يعقد معاهدة مع المسلمين . ولكن توما طلب ان يُعطى وقتاً كافياً كي يتمكن
من ارسال تحارير الى هرقل بذلك الشأن . على ان خالد لم يمهلهم وامر بهجوم
شديد . ولما لم يأت جواب من هرقل وعندما اجتمع الناس ليقرروا التسليم قام
شيخ منهم وكان قد قرأ الكتب القديمة وتكلم عن قدرة المسلمين وعظمة شانهم
ونصح سكان دمشق ان يقصدوا ابا عبيدة و يعرضوا عليه الصلح (٣٤) لان خالداً
كان رجلا قاسياً شديد المراس . فذهب قوم من البيزنطيين الى باب الجابية
وصاروا ينادون المسلمين من فوق السور . فسمع نداءهم قوم من المسلمين كانوا
قرب الباب تحت قيادة عامر بن الطفيل الدوسي تلك الليلة واخبروا ابا عبيدة
عن ذلك فامرهم ان لا يهرقوا دم احد من النصارى اذا اتوا اليه . وفتح

(٣٣) الواقدي ٦٩ يقول ان ضرار بن الازور وحده قتل نحو ١٥٠ رجلاً
(٣٤) راجع ايضاً عباس بن صالح بن سعد في ابن عساكر ١٤٨

البيزنطيون الباب وذهبوا الى خيمة ابي عبيدة (٣٥) وهناك وقعوا معاهدة صلح
ودخل ابو عبيدة دمشق من باب الجابية مع خمس وثلاثين من الصحابة
وخمس وستين من عامة قومه بعد ان ترك مئة من البيزنطيين في خيمته
بصورة رهينة

وكان خالد يجهل كل ما حصل عند باب الجابية وكان الباب الشرقي
مسرحاً لمشاهد تختلف تمام الاختلاف عما حصل في الباب الاخر . فان
كاهناً يقال له يونس بن مرقس كان قد قرأ ملاحم دانيال وعرف شدة بأس
المسلمين فحفر موضعاً في السور الملاصق لداره وخرج من الحفرة ليقابل خالد
و بعد ان اخبره قصته وعقد اتفاقاً معه بحيث يسلم هو وعائلته انفذ معه خالد
مائة رجل من شجعانه ودخلوا من حيث خرج وقصدوا الباب الشرقي و كسروا
الاقفال وقطعوا السلاسل وفتحوا الباب . وعلى اثر ذلك انصب المسلمون من
الخارج ودخلوا المدينة يذبحون و ينهبون كل ما يصادفوه في طريقهم ولما وصلوا
الى كنيسة السيدة ذهل حين شاهد ابا عبيدة مع رجاله يمشون بسلام مع
الكهنة . فاشار ابو عبيدة الى كتاب الصلح وقال ان المدينة اخذت بصلح .
فاجاب خالد و كيف صالحتهم من غير امري وانا صاحب رايتك والامير
عليك فسوف لا ارفع السيف عنهم حتى افنيهم عن آخرهم فقال ابو عبيدة
والله ما ظننت انك تخالفني اذا عقدت عقداً ورأيت رأياً فالله الله في امري
فوالله قد اعطيت دماء القوم عن آخرهم واعطيتهم الامان من الله جل جلاله
وامان رسول الله صلعم وارتفع الصياح بينهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن

(٣٥) وقد نزع البيزنطيون كل ما على صدورهم من الصلبان والعلامات الاخرى
مراعاة للمسلمين

مراده ونظر ابو عبيدة الى ذلك فرأى اصحاب رسول الله مع خالد وهم جيش البوادي من العرب وهم مشتبكون على قتال الروم ونهب اموالهم فنادى وانكلاه حقرت والله امري ونقضت عهدي وجعل يحرك حصانه ويشير الى العرب مرةً يميناً ومرة شمالا و ينادي استحلفكم بالله و برسوله ان تقفوا عن اعمالكم وتحترموا ما فعلت فقد اعطيتهم الامان من الله وامان رسول الله . واخيراً وقفوا عن اعمالهم وصاروا يفكروا بالموقف الى ان رضي خالد بما فعل ابو عبيدة وامضيت صلحاً

ان ما ينقص رواية سيف من النقد والتعديل ينقص هذه ايضاً فالكاتب يميل هنا الى التخيل والاختراع . واننا لنستغرب تلك الصدفة التي حدثت في رواية سيف وتحدث هنا ايضاً وهي دخول خالد وابي عبيدة من ابواب مختلفة تحت ظروف مختلفة في نفس الوقت . واما حب التوازي في الاعداد فتلك مزية ترافق معظم كتاب العرب وهي التي جعلت الواقدي يقول ان مائة دخلوا دمشق مع ابي عبيدة من باب الجابية ومائة دخلوها مع يونس من الباب الشرقي . تلك الامور تبرهن ان قسماً كبيراً من هذه الروايات قد لفق او تغير . واذا فرضنا ان الرواية كانت صحيحة وان خالد دخل عنوة من الباب الشرقي فان ما قلناه في البدء من امر الخيانة لا يخلو منه هذا الحديث بل يذهب ليبرهنه و يثبته فهو يذكر ان يونس بن مرقس قد نقب السور وادخل منه جنود خالد . وعلى كل فان حكاية الصلح والعنوة في الوقت نفسه مما لم يمكن تصديقه

وقد يلاحظ القارىء ان معرفة ما اذا كانت المدينة اخذت صلحاً او عنوة هي نقطة مهمة في الشرع الاسلامي وقد سببت نزاعاً بين القواد كما

يتبين لنا من هذه الروايات لانه اذا اخذت المدينة عنوةً فان كل ما فيها يكون تحت رحمة الفاتحين اما اذا اخذت صلحاً فان الفاتحين يجب ان يتقيدوا بشروط الصلح

ولنذكر ان الواقدي يجعل خالد قائد الجيوش الاسلامية في فتح دمشق وهذا صحيح ولكنه على خطأ في اعتقاده ان عمر عزله والناس محاصرون دمشق وان ابا عبيدة لم يشأ ان يبلغه خبر عزله الا بعد انقضاء الحصار وقد بيّنا خطأ هذا الرأي فيما سبق

٤

رواية ابي عثمان الصنعاني عن فتح دمشق

يقول ابو عثمان الصنعاني في كتاب ابن عساكر(٣٦) « حاصرنا دمشق فنزل يزيد بن ابي سفيان على الباب الصغير ونزل ابو عبيدة على باب الجابية ونزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي وكان ابو الدرداء ببرزه فحاصرناها اربعة اشهر و كان راهب دمشق قد طلب من خالد بن الوليد الصلح فشرط عليه خالد اشياء ابى الراهب ان يجيبه اليها قال فدخلها يزيد قسراً من باب الصغير حتى ركبها وذهب الراهب كما هو على الحائط فاتى خالد بن الوليد ولا يعلم احد ان يزيد قد دخلها قسراً فقال له هل لك في الصلح فقال وتجيبني الى ما شرطت عليك قال نعم فاشهد عليه ففتح له الباب الشرقي فدخل يزيد فبلغ المقسلاط (وهو موضع النحاسين) فالتقى بخالد عنده فقال هذا دخلتها عنوة وقال هذا دخلتها صلحاً فاجمع رأيهم على ان جعلوها صلحاً »

---

(٣٦) التاريخ الكبير ص ١٤٧

تختلف هذه الرواية عن رواية سيف والواقدي في مسألتين : فالاولى هي دخول يزيد عنوةً وخالد صلحاً · على انها لا تذكر كيف دخل يزيد عنوة واي الطرق استعمل والمسألة الثانية هي انها لا تذكر شيئاً عن دخول ابي عبيدة[٣٧] ويقول هارتمن الالماني[٣٨] في كلامه عن نظرية البرنس كيتاني في عدم وجود ابي عبيدة في سورية اثناء الحصار ما معناه « اذاً فقصة التقاء القائدين خالد وابي عبيدة في وسط دمشق لا نصيب لها من الصحة الا اذا اصغينا الى ما قاله لامنس ووضعنا يزيد الذي دخل من باب الصغير مكان ابي عبيدة» وقد تكون نصيحة لامنس نفسها مبنية عَلَى رواية الصنعاني هذه ولكن يزيد دخل عنوة هنا وليس صلحاً فكيفية الدخول هنا بعكس الروايات الاخرى ومع ان حديث الصنعاني لا يذكر ان ابا عبيدة دخل صلحاً فانه يذكر وجوده على باب الجابية واذن لم يكن ابو عبيدة غائباً في المدينة اثناء هذا الحصار كما يريد البرنس كيتاني ان يقول

واننا لنستغرب مسألة ذكرت في كل الروايات المتعلقة بفتح دمشق وهي هذه : ان القائد الذي كان يدخل عنوة كان يرضخ بعد مجادلات طويلة لاحكام القائد الذي دخلها صلحاً ويجري كل المدينة مجرى الصلح · ويمكننا تفسير هذا بقولنا ان المسلمين ارادوا ان يبرهنوا لسكان المدن التي لم تفتح بعد انهم اصحاب عهد ووفاء وانهم لا ينكثون بعهد ولا ينقضون معاهدة بعد ان يمضوها ليحملوا تلك المدن عَلَى تصديقهم وعقد الصلح معهم ولو كان في رضوخ

---

(٣٧) ولكنه فقط يذكر وجود ابي عبيدة عند باب الجابية الامر الذي يتفق مع ما قاله غيره

(٣٨) دائرة المعارف الاسلامية ص ٩٠٤

القائد الذي دخل عنوة شيء من التضحية · وعلى كل الاحوال فان ما قلناه في حديث سيف والواقدي نقوله هنا وهو ان عمل الراهب في توقيع الصلح مع خالد بعد ان دخل المسلمون من باب الصغير لا يُصدق لانه ليس هنالك وقت لاجراء ذلك العمل فضلاً عن انه من المستحيل او المستبعد ان يكون يزيد قد دخل من باب الصغير وخالد يجهل ذلك فينجح معه دهاء الراهب

٥

مرويات البلاذري عن فتح دمشق

يروي الامام البلاذري في روايته الاولى[٣٩] ما يلي : « وكان الاسقف الذي اقام لخالد النزل في بدأته ربما وقف عَلَى السور فدعى له خالد فاذا اتى سلمّ عليه وحادثه فقال له ذات يوم يا ابا سليمان ان امركم مقبل ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة فدعى خالد بدواة وقرطاس فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم و كنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية ، · ثم ان بعض اصحاب الاسقف اتى خالد في ليلة من الليالي فاعلمه انها ليلة عيد لاهل المدينة[٤٠] وانهم في شغل وان الباب الشرقي قد رُدم بالحجارة وتُرك واشار عليه ان يلتمس سلماً فاتاه قوم من اهل الدير

---

(٣٩) فتوح البلدان ١٢١

(٤٠) ربما يعني ولادة غلام لحاكم المدينة انظر الطبري ٢١٥٢

الذي عند عسكره بسلّمين فرقي جماعة من المسلمين عليهما الى اعلى السور ونزلوا الى الباب وليس عليه الا رجل او رجلان فتعاونوا عليه وفتحوه وذلك عند طلوع الشمس وقد كان ابو عبيدة بن الجراح عانى فتح باب الجابية واصعد جماعة من المسلمين عَلى حائطه فانصب مقاتلة الروم الى ناحيته . فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ثم انهم ولّوا مدبرين . وفتح ابو عبيدة والمسلمون معه باب الجابية عنوة ودخلوا فالتقى ابو عبيدة وخالد بن الوليد بالمقسلاط »

ان هذه الرواية غامضة ومبهمة فقد رقي خالد واصحابه السور مع انه كان قد صالح الاسقف والذي يُستغرب هو ان اصحاب الاسقف ارادوا الخيانة بدون ان يعلموا ما فعله الاسقف . وانه ليستبعد ان يكون ابو عبيدة قد دخل دمشق عنوة في نفس الوقت الذي دخلها به خالد . ويفسر دي غويي (٤١) ذلك التناقض بقوله ان منصور بن سرجون اراد ان يجعل سكان دمشق يعتقدوا بان خالد يتسلق اسوار مدينتهم ليفتحها عنوة لكي لا يلومه هرقل في المستقبل على عقد تلك المعاهدة مع خالد في حالة ما اذا فشل العرب . و كنتيجة لذلك الاعتقاد الذي نجح منصور بغرسه في نفوسهم خاف البيزنطيون الذين كانوا يحاربون ابا عبيدة على باب الجابية وولوا الادبار . على ان يوتيشيوس يقول ان البيزنطيين عرفوا بخيانة منصور ولكن دي غويي لا يصادق على ذلك ويقول انهم لو عرفوا تلك الخيانة لمنعوا منصور عنها او لكانوا اتفقوا معه عليها ولم يرجئوا هربهم الى آخر لحظة

اما مساعدة اهل الدير للعرب باعطائهم السلالم الى خالد فانها مسألة معقولة ويمكننا تصديقها اذا عرفنا ان المسلمين لم يطلبوا ضريبة كبيرة على

(٤١) المذكرة ص ٩٩—١٠٠

اراضي الدير بعد ذلك مقابل خدماتهم لهم (٤٢) واذا علمنا ايضاً ان الكهنة لم يكونوا راضين عن سياسة الامبراطور الكنسية وهذا ما دفعهم الى مساعدة العرب الفاتحين كما بينا في مكان آخر

وهنا في هذه الرواية شاهد آخر على ان الخيانة لعبت دوراً مهماً في فتح دمشق فها هي الرواية تشهد ان اصحاب الاسقف اخبروا خالد عن انشغال الاهالي وان اهل الدير ارسلوا السلالم الى خالد لكي يرقى السور واصحابه

واليك رواية البلاذري الاخرى « وقد روي ان الروم اخرجوا ميتاً لهم من باب الجابية ليلا وقد احاط بجنازته خلق من شجعانهم وكماتهم وانصب سائرهم الى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله الى رجوع اصحابهم من دفن الميت . وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم وان المسلمين نذروا بهم فقاتلوهم على الباب اشد قتال وابرحه حتي فتحوه في وقت طلوع الشمس . فلما رأى الاسقف ان ابا عبيدة قد قارب دخول المدينة بدر الى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي فدخل والاسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له . فقال بعض المسلمين والله ما خالد بامير فكيف يجوز صلحه فقال ابو عبيدة انه يجيز على المسلمين ادناهم واجاز صلحه وامضاه ولم يلتفت الى ما فتح عنوة فصارت دمشق صلحاً كلها وفتحت ابواب المدينة فالتقى القوم جميعاً »

« وفي رواية ابي مخنف وغيره ان خالد دخل دمشق بقتال وان ابا عبيدة دخلها بصلح فالتقيا بالزياتين والخبر الاول اثبت (٤٣) »

(٤٢) البلاذري ١٢٢ . وفي نفس الصفحة روايته الاخرى

(٤٣) نفس المرجع : ولكن ابا مخنف لا يذكر من اي الابواب دخلوا . انظر ايضاً خليفه بن خياط الذي يعطي نفس المعلومات ابن عساكر ١٤٦

« وحدثني القاسم بن سلام قال ابو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي قال دخل يزيد دمشق من الباب الشرقي صلحاً فالتقيا بالمقسلاط فامضيت كلها على الصلح [٤٤] » . فمن هو الذي دخل من الجانب الاخر حتى يقال « والتقيا » ؟؟

وعلى كل فان ما يصدق عَلَى الروايات الاخرى من الانتقادات يصدق على هذه . وانه ليدهشنا هذا التناقض الغريب بين تلك الاحاديث مما يزيدنا شكاً وريبة في صحتها . ويقول دي غويي [٤٥] ان يوتيشيوس يقول ما قاله التنوخي وهو ان خالد دخل بصلح ودخل يزيد وابو عبيدة عنوة وان الاثنين التقيا في المقسلاط . هذا مع ان هنالك تناقض بين القولين فالتنوخي يقول ان يزيد دخل بصلح ، ولا نعلم ما الذي حمل شيخ المستشرقين عَلَى ارتكاب هذا الخطأ مع ان الفرق واضح بين القولين

ويقول الرحالة بورتر ان المقسلاط هو الموضع الذي يقال له الان كنيسة مريم في الدرب المستقيم وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين قال :

يسقون مَن ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل

وان المكان الذي كان يلتقي به العرب في الدرب المستقيم هو محل النحاسين او الزياتين [٤٦]

(٤٤) البلاذري ١٢٤ وهذه عكس رواية الصنعاني تماماً
(٤٥) المذكرة ٩٦
(٤٦) ان الصنعاني وكل مرويات البلاذري الا واحداً يذكرون التقاء القائدين في سوق النحاسين . ويذكر ابو مخنف الزياتين .

اما ابن اسحق فانه لا يعطي حديثاً مطولاً عن فتح دمشق ولعل احاديثه المطولة فقدت ولم يبق الا المختصر في كتب غير كتبه [٤٧]

ها قد انهينا ما عثرنا عليه من روايات مؤرخي العرب عن فتح دمشق واوردنا ما عندنا وعند غيرنا من الانتقادات والاعتراضات . وعدا عما في ذلك من المعلومات التاريخية فان فيه فائدة ادبية وعقلية لانه بذلك يتنبه القارىء الى امور دقيقة فيتقوى فيه حب الاستطلاع والانتقاد وزد على ذلك بان القارىء يتوصل بهذه المرويات الى التعرف باقدم الكتب التاريخية العربية وبلغة مؤلفيها وطريقة ابحاثهم

٦

ما نرجحه في امر الفتح

يرى القارىء تناقضاً شديداً وآراء متنافرة في هذه الاحاديث التي رويناها . وهنالك رأيان متناقضان في صحة تلك الروايات نبديهما ليرى القارىء ان ذلك التناقض لم يقتصر عَلَى اصحاب الاحاديث انفسهم بل لحق بالعلماء والمؤرخين الذين قرأوا مروياتهم . فيقول السير ميور [٤٨] ان تلك الاقاصيص التي تنسب قبول التسليم والمعاهدة الى خالد وتخبرنا عن خيانة الاسقف الذي تحدث مع خالد من اعلى السور ودله على مكان يدخل منه المدينة [٤٩] بعد ان حصل على شروط توافقه ، كل هذا مبني عَلَى مراجع لا يُعتمد

(٤٧) انظر الطبري ٢١٤٦
(٤٨) ميور ١٤٨
(٤٩) ربما يشير ميور بذلك الى ما رواه البلاذري

عليها . مع انه لا يجب ان يفوتنا ان ميور من اصحاب رأي الراوية سيف بن عمرو وقد وجدنا نصيب هذا من الصحة

اما المستشرق الالماني هرتمن [٥٠] فانه يعارض مذهب ميور بقوله « ان الآراء التي نشرها ابن عساكر في الشرق وفون كريمر في الغرب ومؤداها ان خالد دخل دمشق عنوةً من الجانب الشرقي وابا عبيدة صلحاً من الجانب الغربي وان القائدين التقيا في كنيسة القديس يوحنا فاحتل المسلمون القسم الشرقي من الكنيسة والمدينة بينما بقي القسم الغربي للمسيحيين هذه الآراء تناقض الاحاديث التي اقدم منها واصح وقد اصبح خطأها معروفاً . اما رواية البلاذري فانها على زعمه اصح واقرب الى الصواب وهي ان ابا عبيدة دخل من باب الجابية عنوةً فالتقى بخالد الذي تمكن من دخول الباب الشرقي إما صلحاً او خيانةً عند كنيسة المقسلاط . ونحن لا نوافق هرتمن في زعمه ان ابن عساكر هو الذي نشر الخبر الذي يريد هو رفضه في الشرق لان ابن عساكر لم يكن له رأي خصوصي وقد اقتصر فعله على رواية احاديث مختلفة ذكرنا منها حديث الصنعاني في هذه الرسالة وهذا الحديث ليس من النوع الذي اتهم به هرتمن ابن عساكر

وفي زعمنا ان هرتمن وميور لم يتمكنا من ناصية الحقيقة في آرائهما . ولكي نرى الصواب في امر الفتح يجدر بنا ان نفكر على الطريقة التالية : انها لحقيقة راهنة لا مناص منها ان كنيسة القديس يوحنا كانت مقسومة بين المسلمين والنصارى حتى عهد الوليد بن عبد الملك فكان النصارى يشغلون القسم الغربي والمسلمون القسم الشرقي منها . وقد رأى الكثيرون من المؤرخين والكتاب

(٥٠) دائرة المعارف الاسلامية ٩٠٣

في هذه القسمة برهاناً واضحاً على ان الجانب الغربي من المدينة أخذ صلحاً وان الجانب الشرقي منها اخذ عنوةً . ويتطرف بعضهم في قولهم ان الجيشين اي جيش ابي عبيدة وجيش خالد التقيا في وسط كنيسة القديس يوحنا ويقول لامنس [٥١] عن هذا الرأي انه سخيف مضحك اشاعوه مؤخراً ليبرروا عمل الوليد في استملاك الكنيسة كلها . وعلى كل فنحن اذا فسرنا تقسيم الكنيسة بين المسلمين والنصارى بما سبق من الآراء فاننا نتوصل الى هذه النتيجة وهي ان قسماً من المدينة اخذ عنوةً وان القسم الآخر سلم باختياره وبقي للنصارى

ولكن هنالك حجتان تمنعانا من اختيار هذه النتيجة فالحجة الاولى هي ان المسيحيين واليهود كانوا يسكنون الجانب الشرقي من المدينة وليس الغربي وهذا ما اذهل فون كريمر وقد وجد صعوبة كلية ليبرهن لملا كيف ترك المسيحيون حيهم . والحجة الثانية هي رواية ابي عبدالله الواقدي [٥٢] نقلها عنه محمد بن سعد وهي تقول « قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أرَ فيه انصاف المنازل والكنائس وقد رُوي ذلك ولا ادري من اين جاء به من رواه » . واكثر الكنائس التي بقيت للمسيحيين كانت في الجانب الشرقي من المدينة . ولكن رغماً عن هذه البراهين فاننا على يقين من ان المسلمين اخذوا نصف الكاتدرائية بعد حصار دمشق الثاني [٥٣] الذي لا يفرقه اكثر المؤرخين عن الحصار الاول وسيرد خبر ذلك في بابه

(٥١) تاريخ سوريه ج١ ص ٥٦

(٥٢) البلاذري ١٢٣

(٥٣) انظر مذكرة دي غوبي ض ٩٨ و٩٩

لذلك نظراً للحقائق والحجج التي بيناها آنفاً ونظراً لتناقض الروايات التي ذكرناها ووقوع الخطأ في كثير منها ونظراً لماوجدناه من التنويهات والاشارات الكثيرة الى الخيانة في اكثر الاحاديث فاننا نرجح ان المسلمين دخلوا دمشق عن طريق المصالحة والتسليم وذلك إما بارادة سكانها او بخيانة بعض وجوهها ·

الفصل الرابع

شروط التسليم

لقد اتينا على ذكر الكتاب الذي كتبه خالد للاسقف وما فيه من شروط ولا حاجة الى اعادة ذكرها الان(٥٤) فقد اعطى اهل دمشق اماناً على انفسهم واموالهم بشرط ان يدفعوا الجزية· على ان بعضهم لا يوافقون على ذلك تماماً ويقولون ان المسلمين افترضوا اشياء غير الجزية على سكان دمشق اذا هم دخلوا مدينتهم وسنورد آراء هؤلاء فيما يلي ·

فقد زعم الهيثم بن عدي(٥٥) ان اهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم · ويقول سيف بن عمرو ويتبعه ميور(٥٦) في قوله ان صلح دمشق كان على المقاسمة الدينار والعقار بحيث التزم المسيحيون ان يعطوا نصف اموالهم واراضيهم الى المسلمين· ويزيد ميور على ذلك نصف الابنية الخصوصية

(٥٤) انظر رواية البلاذري الاولى

(٥٥) البلاذري ١٢٣

(٥٦) الطبري ٢١٥٤ · دحلان ٢٢ · ابن الاثير ١٦٥ · ميور ١٤٨

والعمومية مع نصف الكنائس ونصف كاتدرائية القديس يوحنا · ويقول ميور في اعطاء نصف الكاتدرائية الى المسلمين انه لم يكن نتيجة وصول خالد اليها وتملكها قبل ان يمنعه احد ولا لان الجانب الشرقي من المدينة اخذ عنوة والجانب الغربي صلحاً ولكن ذلك ذكر في كتاب الصلح كامتياز خصوصي للفاتحين

ويرد ابو عبدالله الواقدي(٥٧) على تلك الاقوال بروايته التي رواها عنه كاتبه محمد ابن سعد التي يقول فيها انه لم يرَ في كتاب الصلح انصاف المنازل والكنائس · ثم يقول ان دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون · هذا وان عدداً من كبار العلماء يوافقون على رواية الواقدي(٥٨) ويعارضون الفكرة التي اتى بها سيف وتبعه فيها ميور · اما هذا المستشرق او المصدر الذي اخذ عنه فانه غالباً لم يفرق بين فتح دمشق الاول وفتحها الثاني عندما تكلم عن كاتدرائية القديس يوحنا

ويقول الواقدي ان ابا عبيدة اتفق مع خالد فسمح لتوما وهربيس — حاكما دمشق — واتباعهما ان يأخذوا اموالهم معهم ويأخذ كلٌ منهم قطعة من السلاح وان يذهبوا اين شاؤوا بشرط ان لا يعترضهم احد لمدة ثلاثة ايام من تاريخ خروجهم· وقد شاهد خالد الاموال الكثيرة يحملها البيزنطيون معهم فود لو كان نزعها منهم ممكناً لذلك بعد ان كتب لابي بكر — الذي

(٥٧) البلاذري ١٤٣

(٥٨) دي غويي ٩٨ · هرتمن ٩٠٤ · لامنس تاريخ سوريه ٥٦

كان قد مات ولم يصل المسلمين خبر موته — يستفتيه بشأن الحنطة التي وجدت بكثرة في دمشق لحق بالبيزنطيين بعد خروجهم بثلاثة ايام يصحبه بشر كثير فلقيهم في شمالي انطاكية فحاربهم ونزع منهم اموالهم وقتل توما وأسر زوجته اي ابنة هرقل ثم اهداها الى ابيها وسميت الموقعة موقعة مرج الديباج . ووصل بعد ذلك مكتوب من عمر مع عامر بن ابي وقاص يخبر ابا عبيدة ان على المسلمين ان يأخذوا الحنطة التي في دمشق مع خمس الذهب والفضة وان طريقته في اخذ المدينة كانت الطريقة الصحيحة(٥٩)

وقال عباس بن سهل بن سعد(٦٠) « لما احاط المسلمون دمشق طال على صاحب دمشق انتظار مدد هرقل ورأى المسلمين لا يزدادون الا كثرة وقوة وانهم لا يفارقونه فارسل الى ابي عبيدة يسأله الصلح وكان ابو عبيدة احب الى الروم وسكان الشام من خالد ... فصالحه وفتح له باب الجابية وألح خالد على الباب الشرقي ففتحه عنوة فقال لابي عبيدة اسبهم فاني قد فتحتها عنوة فقال ابو عبيدة اني قد امنتهم فابرم لهم ابو عبيدة الصلح وكتب لهم كتاباً وهذا كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لابي عبيدة بن الجراح ممن اقام بدمشق وارضها وارض الشام من الاعاجم انك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على انفسنا واهل ملتنا وانّا اشترطنا لك على انفسنا ان لا نحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة

---

(٥٩) الواقدي : فتوح الشام ٧٣ — ٧٩ و ٨٧

(٦٠) راجع ابن عساكر ١٤٨ — ١٥٠

راهب ولا نجدد ما تهدم من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار وان نوسع ابوابها للمارة وابناء السبيل ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم على من غش المسلمين وعلى ان لا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا ولا نظهر الصليب عليها ولا نرفع اصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ولا نخرج باعوثاً ولا شعانين ولا نرفع اصواتنا بموتانا ولا نظهر النيران معهم في اسواق المسلمين ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين ولا نرغب مسلماً في ديننا ولا ندعو اليه احداً وان لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليهم سهام المسلمين ولا نمنع احداً من قرابتنا ان ارادوا الدخول في الاسلام وان نلزم ديننا حيثما كنا ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى باسمائهم ونجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا ونشد الزنانير على اوساطنا ولا ننقش في خواتمنا بالعربية ولا نركب السروج ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف وان نوقر المسلمين في مجالسهم ونرشدهم الطريق ونقوم لهم من المجالس اذا ارادوها ولا نطلع عليهم في منازلهم ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نشارك احداً من المسلمين الا ان يكون للمسلم امر التجارة وان نضيف كل مسلم عابر سبيل من اوسط ما نجد ونطعمه فيها ثلاثة ايام وعلينا ان لا نشتم مسلماً ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده . ضمنا لك ذلك على انفسنا وذرارينا وارواحنا ومساكننا وان نحن غيّرنا او خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الامان عليه فلا ذمة لنا وقد حل لك منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق . على ذلك اعطينا الامان

لانفسنا واهل ملتنا فاقرونا في بلادكم التى ورثكم الله اياها شهد الله عَلَى ما شرطنا لكم على انفسنا وكفى به شهيداً»

ان روايتي الواقدي وعباس بن سهل بن سعد فريدتان في بابهما وخصوصاً الرواية الثانية التى يمكن ان يكون المسلمون قد اخترعوها او اخترعوا قسما منها مؤخراً ليبرروا مطالبهم من المسيحيين وليضعوا اساساً تاريخياً للنير الذى وضعوه على اعناق هؤلاء · ولكن مع كل غرابتها فانهما لا يذكران تقسيم الكنائس والابنية الخصوصية والعمومية والاراضي بين الفاتحين واهالي دمشق ·

ويظهر لنا اذاً ان دفع الجزية هو الشرط الوحيد الذي اشترطه المسلمون على سكان دمشق حسب قول اكثر كتابنا · ولكن المراجع تختلف ايضاً في طرق جباية الجزية وفي تعيين الكمية المطلوبة · فيقول سيف بن عمرو[٦١] انها كانت ديناراً عن كل رأس — بقطع النظر عن الجنس والعمر — وعلى الديار ومن بقي في الصلح جريب (قمح) من كل جريب ارض[٦٢] · ويصلح ميور هذه العبارة بقوله انها كانت ديناراً عن كل ذكر راشد مع الضرائب التي كانت تجبى في حكم البيزنطيين ، هذا عدا عن جريب من كل جريب ارض[٦٣]

(٦١) الطبري ٢١٥٤

(٦٢) ان الجريب الاول هو مقدار من القمح قدره من اربع اقفزة الى عشرة والقفيز هو عشرة اعشرا والعاشور يختلف قدره في مختلف الجهات · والجريب الثاني المذكور هو مساحة من الارض قدرها مئة عاشور والعاشور عشر قصبات او مئة ذراع فالجريب اذاً عشرة آلاف ذراع من الارض · انظر المعجم العربي الانكليزي لمؤلفه "لين" Lane ج ١ ص ٤٠٣

(٦٣) ميور ١٤٨

ولا نعلم من اين اتى ميور باصلاحه هذا · ويوافق البلاذري[٦٤] ناقلاً عن ابي عبيد عن هشام بن عمار عن الوليد ابن مسلم عن الاوزاعي على قول سيف بان الجزية كانت ديناراً على كل جمجمة في بادىء الامر ولكنه يروي انهم طلبوا جريباً على كل جمجمة بدلاً من ان يكون على كل جريب ارض · على ان عمر بن الخطاب فرض الجزية مؤخراً حسب الغنى فوضعها على اهل الذهب على كل رجل اربعة دنانير وعلى اهل الورق (الفضة) على كل رجل اربعين درهماً · وفي رواية ثانية في البلاذري ان هذا كان يطلب ليس من كل جمجمة بل من كل من جرت عليه الموسى · زد على ذلك بان عليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان حنطة وثلاثة اقساط زيتاً[٦٥] كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة · ويذكر ابن اسحق ان دمشق فتحت على دفع الجزية ولكنه لا يذكر قيمتها

الفصل الخامس

متى فتحت دمشق

يتفق معظم مؤرخي العرب والافرنج على ان دمشق فتحت عام ١٤ (٦٣٥) وفي شهر رجب (آب — ايلول) من ذلك العام[٦٦] · ويقول الطبري

(٦٤) البلاذري ١٢٤ — ١٢٥

(٦٥) المدى مقداره ١٧ صاع والقسط نصف صاع وكل اردب مقداره ٢٤ صاع ·

(٦٦) البلاذرى ١٢٣ · دحلان ٢٨ · اليعقوبي ١٥٩ · الآتية اسماؤهم في ابن عساكر : ابو زرعه والاوزاعي ص ١٤٦ و ١٤٨ · ابن الجوزى ٩٢ · ابن اسحق في الطبري ٢١٤٦ · هرتمن ٩٠٣ · هيار ٦٣٤ · لامنس ٥٦ · بكّر ٣٤٢

والواقدي انها فتحت عام ١٣[٦٧] . ويقول الواقدي[٦٨] انها فتحت في نفس الليلة التي مات فيها ابو بكر اي ليلة ٢٠ جمادى الاولى عام ١٣ او اول آب عام ٦٣٤ . ويضع معركة اجنادين التي حسب قوله سبقت فتح دمشق تماماً في ٦ جمادى الاولى من نفس العام ولكننا لا يمكننا قبول هذا البتة ونحن نعلم انه يعترف بطول مدة الحصار[٦٩] فكيف يمكن ان يكون قوله صحيحاً وهو لا يترك الا اسبوعين بين موقعة اجنادين وبين فتح دمشق التي اخذ حصارها مدة طويلة ؟ فيظهر اذاً ان الواقدي يناقض نفسه في مسألة ترتيب الحوادث

اما المستشرق الالماني فايل فانه يعتمد في وضعه سقوط دمشق في كانون الثاني عام ٦٣٥ (ذو القعدة — ذو الحجة ١٣) على عبارة في تاريخ المسعودي الذي لا يوثق به تماماً . ويظهر ان خطة هذا المؤرخ العربي هي وضع كل الفتوحات المهمة عام ١٣

اما التاريخ الذي وُجد على كتاب صلح خالد فهو ربيع الثاني عام ١٥ (ايار — حزيران ٦٣٦) :

وتفسير ذلك ان خالد لما كتب كتاب الصلح لم يضع عليه تاريخاً ولكن لما خرج المسلمون ليحاربوا جيوش البيزنطيين في معركة اليرموك عام ١٥ اتى الاسقف الى خالد وطلب منه ان يجدد كتاب الصلح ويشهد بعض اصحابه عليه . ففعل خالد ذلك ووضع اسماء ابي عبيدة ويزيد وشرحبيل

---

(٦٧) مع ان الطبرى يعطي رأى رجل آخر اسمه الواقدى غير الذى ذكرناه بانها سقطت في عام ١٤ . جبن ٣٢٣ ور بسن ٣٩٧ يعطيان عام ١٣ «٦٣٤»

(٦٨) الواقدي ٨٥

(٦٩) راجع الواقدي ص ٥٩ و٧٩

كشهود على كتاب الصلح وارّخه بتاريخ اليوم الذي جدد فيه الكتاب[٧٠] ومن ذلك تاريخه في ربيع الثاني عام ١٥ وذلك ليس ببرهان ان دمشق سقطت في ذلك العام

ولنجرب الان ان نجد بالضبط في اي يوم من شهر رجب عام ١٤ سلمت دمشق . يقول ابو معشر وابو حذيفه[٧١] وابن الكلبي[٧٢] ان فتح دمشق كان يوم الاحد في ١٥ رجب ويقول هرتمن[٧٣] بل كان في ١٤ رجب . ولكن نهار الاحد لا يوافق ١٥ رجب بل يوافق ١٤ منه . فابو معشر واصحابه مخطئون في التاريخ وليس في النهار . ويقول دي غويي مستنداً الى ارجوزة سورية ان البيزنطيين تركوا دمشق في ١٠ آب او ايلول عام ١٤ . ولما كان يوتيشيوس يقول انهم تركوا المدينة في نفس اليوم الذي سقطت فيه ولما كان اليوم العاشر من ايلول يوافق نهار احد فان دي غويي يستنتج ان ابا معشر ربما اراد ان يقول ان دمشق سقطت في ٢١ رجب الذي يوافق ١٠ ايلول . والذي اسهل من هذه الطريقة التى اتبعها هو ان نقبل التاريخ الذي يعطيه هرتمن اي ١٤ رجب وهو يقع نهار الاحد علَى ان هرتمن لا يذكر من اين اتى بهذا التاريخ

اذاً فقد دام الحصار ستة اشهر كما ذكر ابن خلدون[٧٤] اذا حسبنا ان

---

(٧٠) البلاذري ١٢٣

(٧١) مذكره دي غويبي ١٠١

(٧٢) ابن عساكر ١٤٦ و١٥٢

(٧٣) دائره المعارف الاسلامية ٩٠٣

(٧٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٦

دمشق حوصرت في شهر محرم عام ١٤ [٧٥] وسقطت في شهر رجب من السنة نفسها . ومن المؤرخين من يقول خلاف ذلك [٧٦] . على ان ما يعطيه ابن خلدون هو الصواب عَلَى الارجح بعد ان بينا بالتدقيق اليوم الذي حوصرت فيه واليوم الذي سقطت فيه دمشق

والرجل الذي ارسل الى المدينة ليخبر عمر عن الفتح كان عقبه بن عامر [٧٧] . وقرأ عمر الكتاب في الجامع فكبر المسلمون كلهم وهللوا و بدت امارات الفرح على وجوههم

ويذكر بعض المؤرخين ان ابا عبيدة وخالد ذهبا الى بعلبك ثم حمص بعد سقوط دمشق وانهما تركا يزيد وشرحبيل قرب ساحل سورية [٧٨] . ويقول دي غويجي [٧٩] في ذلك انه لا يقع في تلك الاونة وان المؤرخين قد يكونون مخطئين في عدم التفريق بين الحوادث التي سبقت الحصار وتلك التي تبعته وذلك راجع الى عدم تفريقهم بين الحصار الاول والثاني لدمشق وعلى كل فاذا كان خالد وقواده قد فعلوا هذا فقد يكون فعلهم موقتاً فقط .

---

(٧٥) انظر الفصل الاول من المقالة الثالثة في هذه الرسالة . الواقدى في الطبري ٢١٥٥

(٧٦) يقول اليعقوبي ١٥٨ ان المدينة حوصرت قبل موت ابي بكر باربعة ايام وان حصارها دام سنة كاملة ودخلها المسلمون في رجب عام ١٤ . و يقول بكر بن عطيه وسعيد بن غفير المصري في ابن عساكر ١٤٦ ان حصارها دام اربعة اشهر . و يقول سيف في الطبرى ٢١٥١ انه دام ٧٠ يوماً .

(٧٧) الواقدى د٨

(٧٨) البلاذرى ١٣٠

(٧٩) المذكرة ١٠٢

المقالة الرابعة

اخلاء دمشق وفتحها الثاني

ان معظم مراجعنا العربية لا تقر تماماً بان المسلمين تركوا دمشق ثم افتتحوها ثانية بعد ان حاصروها وذلك بعد انتصارهم في اليرموك . وما نرويه هنا انما اخذناه عن المستعربين من علماء المشرقيات . وقد يجد الباحث في اكثر التواريخ العربية القديمة اشارات الى ذلك الاخلاء والفتح الثاني كما رأينا في كتاب فتوح البلدان للبلاذري [١] ، عَلَى انهم لا يروون ذلك بايضاح وتفسير ذلك سيرد فيما يلي . وقد جمع المستشرقون تلك الاشارات المتعددة والبراهين و بنوا عليها استنتاجاتهم

الفصل الاول

انتصار اليرموك ونتائجه

لما يأس هرقل من انقاذ دمشق من ايدي الفاتحين كان يكره ان يترك هذه البلاد السورية للعرب فاعمل فكره في محاربة المسلمين محاربة نهائية فاصلة . واقترب الجيش الذي قاده ثيودوسيوس سكلاريوس الى جنوبي

---

(١) البلاذري ١٢٣

بحيرة الحولة وكانت خطته ان يقطع كل مواصلة بين العرب في دمشق وبين وطنهم في شبه جزيرة العرب بحيث لا تعود تصلهم الامداد فيحاربون البيزنطيين وينكسرون وبذلك يجبرون على ترك سورية . على ان الاقدار شاءت غير ذلك كما سنرى عما قليل

وكان الجيش البيزنطي مؤلفاً من شعوب مختلفة تفرقهم كوامن الحقد وهذا ضعف كان له اثره في انكسار البيزنطيين . ففيه وجدت العساكر البيزنطية المأجورة وبعض قبائل العرب المتنصرة والارمن . وكان من جملة قواده باهان (ڤاهان) وجرجيه وجبله بن الايهم ملك غسان . اما عدده فكان يتراوح بين المائتي الفاً والمائة الفاً كما روى البلاذري وابن اسحق[٢] من جهة وبين الخمسين الفاً والثلاثين الفاً كما روى بكر" ولامنس[٣] . فهنالك اختلاف كبير بين هذه الاقوال وعلى كل فان الرقم الذي اعطاه البلاذري يجب ان يكون فيه مبالغة

وانتظر هرقل حتى انقضى فصل الشتاء وفي ربيع الثاني عام ١٥ (ربيع عام ٦٣٦) اقترب الجيش الذي حشده . وشعر خالد بحراجة موقفه ازاء تلك الكتائب لان المسلمين حسب قول بكر" كانوا تعودوا ان يحاربوا قوات بيزنطية اقل منهم عدداً . لذلك اخلى المسلمون القسم الشمالي من سورية كله حتى دمشق التي كان عهدهم حديثاً في فتحها وتوجهوا نحو الجنوب . وقد قيل ويثبت ذلك القول روايات عدة ان المسيحيين حزنوا لمفارقتهم وذلك لانهم كانوا راضين

(٢) البلاذري ١٣٥ ودي غويي ١٠٧
(٣) بكر" ٣٤٣ . سوربه ج ١ ص ٥٦

عن حكمهم فقد رأوا من تخفيف الضرائب والتسامح الديني ما حببهم فيهم[٤] واننا لسنا بناكرين ما اتى به الفتح للمسيحيين من خسائر فنحن اذا تكلمنا هنا عن حسن معاملة المسلمين لهم فانما ذلك يصدق اذا علمنا سوء ادارة البيزنطيين وسوء تصرفهم مالياً ودينياً وجنسياً

وجمع خالد قواته في نقطة واقعة شرقي نهر الاردن وجنوب شرقي نهر اليرموك . وهذا النهر مجهول بالنسبة الى غيره يجري من اراضي حوران ويصب في الاردن جنوبي بحيرة طبريه . ويشكل على بعد ثلاثين ميلاً من التقائه بالاردن قطراً شبيهاً بنصف دائرة يحيط بسهل فسيح يدعى سهل الياقوصة . وفي مقدمة ذلك القطر بمنزلة الرقبة من الرأس اخدود يسيطر على الدخول الى ذلك السهل المتسع . فبعد ان عبر البيزنطيون الاردن دخلوا سهل الياقوصة . اما المسلمون فانهم احتلوا جوانب ذلك الاخدود وبذلك سيطروا على الطريق المؤدية الى الداخل . وكان يحميهم من خلفهم وديان روافد اليرموك الجوفاء . وقد حفظوا خط الرجعة الى الصحراء في حالة انكسارهم[٥] وكان عددهم نحو اربعة وعشرين الف مقاتل[٦]

ان تفاصيل هذه المعركة الفاصلة معدومة تقريباً وعلى كل فاننا نعلم ان

(٤) ابوحفص الدمشقي والتنوخي في البلاذرى ١٣٧ وابو مخول السورى في دي غويي ١٠٥ ويقال ان المسلمين ارجعوا الجزية الى النصارى الذين غضبوا لذلك ووعدوا بان يساعدوهم : كتاب الخراج لابي يوسف في المذكرة ص ١٠٤ .
(٥) امير علي ص ٣٧
(٦) يقول لامنس ٥٦ وبكر" ٣٤٣ انهم كانوا ٢٥٠٠٠ وامير علي ٣٨ يقول ٤٠٠٠٠ .

الجيشين بقيا مدة طويلة يجابه واحدهما الآخر ولا يبدأ احدهما بحركة ضد خصمه · ويقول البعض ان البيزنطيين بدأوا بالقتال اخيراً ويقول لامنس ان قبائل العرب المتنصرة خانت والتحقت بالجيوش الاسلامية ويقول الاخرون ان ريح الخمسين عصفت فاعمت عيون البيزنطيين بما رفعته من الرمال والغبار [٧] ولعل الذين يأتون بهذه الاقوال وكلهم من الاجانب يريدون ان يقللوا من عظمة شأن العرب ومقدرتهم الحربية فهم يكرهون ان ينسبوا انتصارهم الى شدة بأسهم وحسن درايتهم فيبالغون في اهمية تلك العوامل الطفيفة · ولا نعلم من اين اتوا بها ومؤرخو العرب لا يذكرونها قط ولربما عرفها مؤرخو العرب ولم يذكروها لغاية نعلمها · ولعل المستشرقون الذين ذكروها نقلوها عن مؤرخي البيزنطيين · وعلى كل فان العرب احاطوا بالبيزنطيين من الجانب الغربي وقطعوا عليهم خط الرجعة الى دمشق ومنعوهم من الانسحاب غرباً باحتلالهم الجسر الذي فوق وادي الرّقاد · واخيراً اجبروهم على الالتجاء الى زاوية ما بين نهر اليرموك ووادي الرقاد فغرق بعضهم في النهر وقُتل الاخرون وهلك الذين هربوا الى قرية الياقوصة · ويقال ان خالد هو الذي ضرب الضربة القاضية في تلك المعركة

وقد كانت هذه المعركة في شهر رجب عام ١٥ (آب ٦٣٦) [٨] وبعضهم يقولون في الثاني عشر من رجب (٢٠ آب) [٩] · ولا حاجة بنا هنا

(٧) تاريخ سورية للامنس ٥٦ : تاريخ العرب لهيار ٢٣٤ ·

(٨) البلاذري ١٣٧ · الواقدي في الطبري ٢١٥٥ · ابن الجوزي ٩٢ · هرثمن ٩٠٤ · يقول جبن انها كانت في تشرين الثاني عام ٦٣٦ او رمضان — شوال عام ١٥

(٩) نلدكه في مذكرة دي غويي ١٠٩ · ودي غويي في دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٢٤ بكر ٣٤٤ ولامنس ٥٦

الى الاعادة على القارئ بان الذين وضعوا معركة اليرموك قبل حصار دمشق الاول كانوا مخطئين والارجح انهم عنوا معركة اجنادين كما بينا في المقالة الاولى من هذه الرسالة · وقد قال تيوفانيس [١٠] ان حصار دمشق وفتحها كانا نتيجة موقعة اليرموك ولنرى اي حصار عنى بقوله هذا · يقول حضرته ان الموقعة كانت يوم الثلاثا في ٢٣ تموز او آب · وقد وافق تاريخ ٢٣ آب عام ٦٣٤ يوم الثلاثا · ولكن تاريخ ٢٣ تموز عام ٦٣٦ صادف يوم ثلاثا ايضاً · اذن لا يجب ان نقرر كما قرر بعضهم انه كان يريد ان يقول بان موقعة اليرموك حدثت سنة ٦٣٤ وان حصار دمشق الذي عناه هو الحصار الاول ·

وقد ادّت ابحاث الرحالة زيتسن (seetzen) الى اكتشاف المكان الذي قهر فيه الجيش البيزنطي وكان ذلك في شهر شباط عام ١٨٠٦ فقد راى القرية التي اعارت اسمها الى السهل القريب منها واسم القرية الياقوصة وهذا الاسم الصحيح وليس الواقوصة كما يسميها البعض [١١]

لم يكن فتح دمشق الاول ذا اهمية كبرى في اعين البيزنطيين ولكن انتصار المسلمين في معركة اليرموك كان الضربة القاضية عليهم وكان نقطة تحول في تاريخ الاسلام واذا شئت فقل في تاريخ العالم · فقد جعلهم ذلك الانتصار اسياد سورية ولم يخطئ سيف الله المسلول حين شبه بلاد الشام

(١٠) مذكرة دي غويي ١٠٨ — ١٠٩ جبن ٣١٨

(١١) ان كلمة واقص بمعنى تهافت ويقول محمد كرد علي انها سميت الواقوصة لان العرب اقتربوا من اعدائهم : خطط الشام ج ١ ص ١١٥ ·

بجمل القي بوانيه(١٢) ولما بلغ هرقل خبر انكسار جيوشه هرب من انطاكية الى القسطنطينية شاعراً بان حياته الملأى بالمفاخر قد انتهت بالعار . ولما قطع الدرب (ممر طورس) التفت نحو سوريه وقال « سلام عليك يا سوريه وما انفعك للعدو » وقد اشار بذلك الى مراعي سوريه العديدة(١٣) . وقد يذكرنا منظر هرقل هذا بالام بونابرت وهو يلقي آخر لحظة علَى فرنسا من ظهر باخرته ليذهب الى منفاه البعيد في جزيرة القديسة هيلانة . وقد استرجع المسلمون كل ما فتحوه من البلدان جنوبي جبل الشيخ وشرقيه في هـذه الاونة بين موقعة اليرموك وابتداء عام ١٦ او ٦٣٧ .

الفصل الثاني

فتح دمشق ثانية وعزل خالد

١

كيف فتحت دمشق ثانية

وكان فتح دمشق في هذه المدة التي انقضت بين معركة اليرموك وابتداء عام ١٦ . ولما انتصر العرب في اليرموك توجهوا كعادتهم الى امكنتهم التي منها اتوا ولما استرجعوا المدن التي افتتحوها قبل المعركة شعروا بان تلك المدن كانت دائماً تحت ادارتهم ولم تفلت منهم يوم تركوها ليحاربوا

(١٢) راجع خطبة خالد في اواخر الفصل الرابع من المقالة الاولى فيهذه الرسالة .
(١٣) الواقدى في الطبرى ٢١٥٥ . البلاذرى ١٣٢

البيزنطيين في اليرموك . وهذا ما يملل لنا عدم التفريق بين الحصارين الاول والثاني وعدم اهتمام مؤرخي العرب في ذكر الثاني فان المؤرخين لا يذكرون هذه النقطة ويقولون فقط ان قواد العرب ساروا ضد انطاكية وقنسرين(١٤) ولا يشيرون الى سيرهم ضد دمشق وحمص .

اما قول الحق فهو ان دمشق كانت اول مدينة فتحها العرب بعد انتصارهم في اليرموك(١٥) فقد حاصروها مدة طويلة لانه وان كان كثير من سكانها لا يضمرون لهم شراً فان الحامية صدت هجماتهم . واخيراً اخذت المدينة صلحاً على ان التفاصيل تنقصنا . وعلَى كل فان البنود الرئيسية في المعاهدة الاولى بقيت كما هي . ويظهر ان المسلمين ارادوا ان يقاصوا اهل المدينة فاجبروهم ان يعطوهم بعض كنائس كنصف كنيسة القديس يوحنا التي لم نجد سبباً لقسمتها بعد الفتح الاول .

ويجدر بنا هنا ان نأتي ببعض عبارات عن اخبار هذه الكاتدرائية بعد قسمتها . فقد كانت طقوس الديانة المسيحية تقام في النصف الواحد وكان القرآن ينشد في النصف الآخر وكان المؤذن يعلن للملا يومياً سيادة النبي العربي . وقد اراد الخلفاء الامويون معاوية ابن ابي سفيان وعبد الملك بن مروان ان يضيفوا القسم الباقي من الكنيسة الى الجامع على ان يدفعوا للنصارى مالاً مقابل ذلك ولكن النصارى لم يرضوا . واتى الوليد بن عبد الملك واجبر

(١٤) البلاذرى ١٣٧
(١٥) يقول هيار ان تاريخ فتحها ثانية كان في آخر رجب عام ١٥ (ايلول ٦٣٦) راجع تاريخه ص ٢٣٤ ولكن هذا لا يترك وقتاً كافياً لمدة الحصار . ويقول هرتمن في ذي القعدة عام ١٥ (كانون الاول ٦٣٦)

المسيخيين ان يتركوا كنيستهم فاضاف الكنيسة الى الجامع · ولما لم يقدر الخليفة عمر بن عبد العزيز ان يرجع الى المسيحيين نصف كنيستهم فانه اعطاهم كل كنائس الغوطة التي اخذت عنوة وكانت في ايدي المسلمين فرضي النصارى بذلك ولم يعودوا يطلبوا حصتهم من الكنيسة منذ ذلك الوقت · وقد ازيلت كل الرسوم والزين المسيحية في الكاتدرائية ولكن بعض الكتابات التى تخبرنا عن اصلها كهيكل وثني لا تزال موجودة · ويمكننا ان نقرأ فوق المدخل الرئيسي بعض كلمات المزامير المكتوبة بالاحرف اليونانية والتى من بناء البيزنطيين وهي هذه « ان ملكوتك يا مسيح ملك كل الدهور وسلطانك من جيل الى جيل »[١٦]

واما بشأن سور المدينة فقد ذكر البلاذري قال سمعت هشام بن عمار يقول « لم يزل سور مدينة دمشق قائمًا حتى هدمه عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بعد انقضاء امر مروان وبني اميه»[١٧] · عَلَى ان المتفرج يقدر ان يشاهد حتى هذه الايام بقايا سور المدينة وابوابها قائمة رغم مرور الايام ·

٢

عزل خالد من القيادة العليا

تختلف آراء المؤرخين في ذكر الوقت الذي صار فيه عزل خالد فبعضهم يقولون ان ذلك كان بعد موقعة اليرموك ويرجح بعضهم كونه بعد فتح

(١٦) انظر البلاذرى ١٢٥ — ١٢٦ · ميور ١٤٩ — ١٥٠

(١٧) البلاذرى ١٢٦

دمشق الثاني[١٨] · ويقول لامنس ان ابا عبيدة عُين قائداً عاماً بعد اليرموك بدل خالد · ويوافق بكر عَلَى ذلك[١٩] بقوله ان السلطة في المدينة المنورة صرفت حولا كاملا وهي تحاول ان تُدخل طريقة الاحتلال النظامي في سوريه بدل الغزوات التي لا خطة لها وانها اخيراً رأت ضرورة قائد عام قوي فاختار عمر ابا عبيدة بدلا من ان يختار خالد لانه وان كان هذا صاحب القدح المعلى في الحروب فانه لم يكن مسالمًا يتوصل الى غاياته بطرق واتفاقات سياسية · ولعل بكر لم يعترف بوجود قائد عام حتى ذلك الوقت بل كان يفتكر ان كل قائد كان عَلَى نفسه وهذا ما نستبعده · وقد يمكن التوصل الى معرفة وقت عزل خالد اذا عرفنا الوقت الذي يعطيه الذين يضعون معركة اليرموك عام ١٣ لذلك لانه كان يجب عليهم وضع المعركة في عام ١٥ وقد بينا ذلك سابقًا تحت مسالة وفاة ابي بكر وقيادة جيوش الاسلام · ويقول دي غويي ان خالد عزل بعد فتح دمشق الثاني تمامًا وتعليل ذلك ان الكتيبة التي كانت قدمت مع خالد من العراق تركت سورية في ذلك الوقت تمامًا لتنضم تحت راية سعد بن ابي وقاص[٢٠] · وان رجوع هذه الكتيبة التي كان يقودها خالد من الاصل ربما سببت عزله من القيادة العليا ·

وفي كل الاحوال فان هنالك اسباب اخرى جعلت عمر بن الخطاب يعزل خالد · فهنالك قصة طويلة بشأن العداء القائم بين عمر وخالد وهذة

(١٨) راجع بشأن تلك الآراء الفصل الرابع في المقالة الاولى ·

(١٩) تاريخ سورية للامنس ٥٦ · بكر ٣٤٤

(٢٠) راجع مذكرته ص ١٢٤

يقبلها معظم مؤرخي العرب[٢١] كسبب للعزل ولكن عمر اشرف واعمق من ان يفعل ذلك لمجرد عداء شخصي بينه و بين خالد . فاذا فرضنا ان قصة ذلك العداء كانت صحيحة فقد ينسى عمر مسألة العداء لو رأى في بقاء خالد خيراً لمستقبل الاسلام . اذاً فالامر المهم هنا ليس امر العداء وانما هو هذا : لقد بدأ بعد فتح دمشق النهائي عصر جديد في تاريخ العرب والاسلام . فقد انقضى تقريباً القسم الصعب من الحروب الاسلامية واتى دور الادارة والتنظيم فلهذا تحتم استبدال سيف الله بامين الامة[٢٢] . و يقول آخرون ان خالد كان مبذراً للاموال وظالماً ولذلك عزله عمر[٢٣] . و يذكر غيرهم ان شهرة خالد الواسعة وتعلق المسلمين به كان خطراً على الديانة ولذلك فقد خشي عمر ان يشتد ايمان الناس به اكثر من ايمانهم بالله الواحد . ولربما اجتمعت هذه الاسباب كلها وجعلت عمر يعزل خالد بن الوليد .

الفصل الثالث

نتائج فتح العرب الشام

وبعد ان فتحت دمشق نهائياً ذهبت جنود العراق الى العراق وسار ابو عبيدة نحو شمالي سورية يصحبه خالد وذهب عمرو بن العاص الى فلسطين وشرحبيل الى الاردن ويزيد بن ابي سفيان الى ساحل سوريه .

ولا نبالغ اذا قلنا ان فتح العرب للشام اتى بنتائج ذات اهمية كبرى

---

(٢١) انظر مثلاً ابن اسحق في الطبرى ٢١٤٨ . ابن الاثير ١٦٤

(٢٢) الاول لقب خالد والثاني لقب ابي عبيدة

(٢٣) الواقدي ٨٦

لا نزال نرى تاثيرها حتى الان ولما اتى هرقل خبر سقوط دمشق للمرة الاخيرة في ايدي العرب قال « اودعك يا سوريه وداعاً ليس بعده لقاء »[٢٤] لان بسقوط دمشق التى دعاها العرب حصن الشام[٢٥] سقطت معها كل البلاد الواقعة شرقي البحر المتوسط من ايدي البيزنطيين ولم يبق تحت سلطانهم الا اورشليم وقيصرية الحصينتان فقد بقيتا بضع سنوات تصدان هجمات المسلمين . و ينسب بعضهم[٢٦] مقاومة هاتين المدينتين الطويلة الى المسألة التالية : يقولون ان العنصر البيزنطي هو العنصر الرئيسي في تلك البلدان وان العرب او الاراميين كانوا العنصر الاساسي في المدن الاخرى ولذلك فانهم سهلوا تسليمها الى المسلمين كما فعلوا في دمشق وذلك لانهم لم يكونوا راضين عن حكم البيزنطيين . ولا يسعنا الا الاقرار بان في هذا الزعم قسط من الصحة وان مصير هذه البلاد بعد الفتح العربي الاسلامي توقف على ميول سكانها .

ويقول كريمر[٢٧] وقوله مثبوت ان العرب احتلوا الجانب الغربى من دمشق وهذا الجانب يحيط بالقلعة و بقي اليهود والنصارى في الجانب الشرقي

ومع اقرارنا بان الفتح العربي هذا لم يكن الا بمثابة السيل المفاجيء من الانسياب المتواصل ومع اعترافنا بان الصحراء كانت ترسل افواجاً من العرب الى هذه البلدان قبل ان يكون الفتح فانه لا يسعنا الا القول بان الفتح العربي الاسلامي كان نقطة التحول في تاريخ هذه البلاد وان على نجاح

---

(٢٤) ربسن : اشهر حضارات التاريخ ص ٣٩٨

(٢٥) راجع الطبرى ص ٢١٥٠

(٢٦) بكر ٣٤٥

(٢٧) انظر تاريخ فون كريمر ١٤٧

المسلمين في فتحهم توقف نوع حضارة هذه البلاد ومصيرها . وان الفرق لعظيم في نتائج ما اذا كان العرب نجحوا في فتوحاتهم او خذلوا

ومع ذلك التغير كله فانه لا يجب ان تقبل راي الذين نظروا الى الفتح نظرة سطحية فقالوا ان العرب خلقوا حضارة اسلامية جديدة ابتدات بالنبي محمد (صلعم) وعمت هذه البلاد حالا بعد ان فتحت . و ينبغي ان لا نجهل الديمومة التاريخية وادوار الانتقال في الحضارات اذ ليس هنالك شيء جديد تماماً وما نظنه جديداً انما يرتكز على اشياء واصول قديمة . و يصدق هذا ايضاً على الاراء والمعتقدات الدينية والعمرانية والسياسية وعلى المؤسسات والحضارات المختلفة فهذه البلاد سامية بشعوبها وحضارتها ولما سيطر اليونان عليها لم يغيروا حضارتها وعادات اهلها بل ظلت تقريباً كما هي وقد تعجب كثيرون من ذلك فقالوا ان الشرقيين يحافظون عَلَى عاداتهم محافظة العجوز على درهمها . ولكن مع هذا كان تأثير حضارة اليونان يفعل فعله بالتدريج و يزداد الى ان كان القرن الثالث بعد الميلاد حينما بدأ رد فعل جنسي ضد سيطرة الحضارة اليونانية على الشرق وصار العنصر السامي يتحرك تحت السطح الاغريقي وخصوصاً حيث وجد الاراميون بكثرة . ولا يجب ان ننكر ان اليونان تاثروا ايضاً بحضارة الشرقيين الذين عاشوا بينهم وصارت مدينتهم تدعى اغريقية شرقية . ثم اتى الفتح الاسلامي فلم يشيد العرب فجأة مدنية عربية اسلامية في هذه الربوع بل كان ذلك بالتدريج و بالتفاعل بين الحضارتين . اذاً فقد اصبح الاسلام وريثاً للحضارة اليونانية الشرقية وصارت تلك المدنية تفعل فعلها في الحضارة العربية وذلك لان العرب وجدوا الاحوال موافقة لتشبعهم بمدنية اليونان لانهم احتلوا نفس البيوت التي كان يسكنها هؤلاء واستعملوا

نفس الانظمة التي استعملوها . ومن الوجهة الاخرى نرى ان دمشق التي كانت مركزاً كبيراً للحضارة الاغريقية صارت تغير شكلها و بدلا من ان تستمر في كونها مدينة سورية يونانية فقد اصبحت مدينة اصيلة في العروبة وسميت « جنة الاسلام » .

وصار الاسلام يزدادون في دمشق وخصوصاً بعد ان اصبحت عاصمة الخلافة الاموية وكان ازديادهم نتيجة أمرين الاول هو المهاجرة من شبه جزيرة العرب والثاني اعتناق الملة الاسلامية من غير المسلمين . وقد رأى البعض في انتشار العرب واتساع سلطانهم انتشاراً للديانة الاسلامية فقط . ولكن لا يجب ان يغرب عن ذهننا ان ما فعله السيف انما كان نشر سيادة العرب السياسية وليس نشر الديانة الاسلامية فقط .

جدول تاريخي للحوادث المذكورة

في الرسالة

١ ارسال الحملات من المدينة قبل نهاية عام ١٢ (٦٣٣ — ٦٣٤)

٢ موقعة داثن ذو الحجة عام ١٢ (٤ شباط ٦٣٤)

٣ مسير خالد من العراق الى الشام صفر عام ١٣ (نيسان ٦٣٤)

٤ معركة اجنادين ٢٨ جمادى الاولى عام ١٣ (٣٠ تموز ٦٣٤)

٥ وفاة ابي بكر ٢١ او ٢٢ جمادى الثانية عام ١٣ (٢٢ او ٢٣ آب ٦٣٤)

٦ توقيع اهالي حمص معاهدة مع العرب الذين تعقبوا البيزنطيين بعد اجنادين ذو القعدة عام ١٣ (كانون الثاني ٦٣٥)

٧ موقعة فحل ٢٨ ذو القعدة عام ١٣ (كانون الثاني ٦٣٥)

٨ يوم مرج الصفر اول محرم عام ١٤ (٢٥ شباط ٦٣٥)

٩ فتح دمشق ١٤ رجب عام ١٤ (٣ ايلول ٦٣٥)

١٠ موقعة اليرموك رجب عام ١٥ (آب ٦٣٦)

١١ فتح دمشق الثاني بين رجب عام ١٥ ومحرم عام ١٦ (بين آب ٦٣٦ وكانون الثاني ٦٣٧)

١٢ عزل خالد بعد فتح دمشق اي اوائل عام ١٦ (اوائل ٦٣٧)

فهرست

مقدمة ٥

مقدمة المصادر ٧

مصادر الرسالة ١٦

المقاله الاولى ١٩

العرب الفاتحون قبل وصولهم الى دمشق

الفصل الاول

ملاحظات عامة بشأن الفتح الاسلامي

١ اسبابه ومميزاته

٢ لماذا انتصر العرب في فتوحاتهم ٢٧

الفصل الثاني ٣٢

منذ البداءة حتى اجنادين

١ سير الجيوش الى سورية

٢ فتح فلسطين الجنوبية ٣٥

٣ مسير خالد بن الوليد الى سورية ٣٧

الفصل الثالث ٤٢

موقعة اجنادين

الفصل الرابع ٤٦

حوادث هامة في العالم الاسلامي

١ وفاة ابي بكر ومسألة قيادة الجيش

٢ مواقع فحل ومرج الصفر والتغير في طبيعة الفتح الاسلامي ٥٢

المقالة الثانية	٥٥
وصف دمشق ابان الفتح الاسلامي	
الفصل الاول	
اهمية المكان	
الفصل الثاني	٥٧
الاسوار والحصون	
الفصل الثالث	٥٨
ابواب دمشق وشوارعها	
الفصل الرابع	٦١
كاتدرائية القديس يوحنا والكنائس الاخرى	
المقالة الثالثة	٦٣
سقوط دمشق في ايدي العرب	
الفصل الاول	
نزول قواد المسلمين عند اسوار دمشق	
الفصل الثاني	٦٦
الاحوال العمومية اثناء الحصار	
الفصل الثالث	٧٠
العرب المسلمون يدخلون دمشق	
١ آراء قديمة وحديثة بشأن دخول المدينة	
٢ فتح دمشق وتسليمها حسب رواية سيف بن عمرو	٧٢
٣ رواية الواقدي عن فتح دمشق	٧٥
٤ رواية ابي عثمان الصنعاني عن فتح دمشق	٧٩
٥ مرويات البلاذري عن فتح دمشق	٨١
٦ ما نرجحه في امر الفتح	٨٥

الفصل الرابع	٨٨
شروط التسليم	
الفصل الخامس	٩٣
متى فتحت دمشق	
المقالة الرابعة	٩٧
اخلاء دمشق وفتحها الثاني	
الفصل الاول	
انتصار اليرموك ونتائجه	
الفصل الثاني	١٠٢
فتح دمشق ثانية وعزل خالد	
١ كيف فتحت دمشق ثانية	
٢ عزل خالد من القيادة العليا	١٠٤
الفصل الثالث	
نتائج فتح العرب للشام	١٠٦
جدول تاريخي للحوادث المذكورة في الرسالة	١١٠